

العنوان:	حركة " الدوارين " في شمال أفريقيا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - جامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس - المغرب
المؤلف الرئيسي:	المبكر، محمد
المجلد/العدد:	ع 7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1984
الصفحات:	259 - 308
رقم MD:	229105
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, HumanIndex
مواضيع:	المسيحية ، شمال أفريقيا ، القرن 4 م ، القرن 5 م، الحضارات القديمة ، حركة الدوارين ، الأقليات العرقية ، المجتمع الأفريقي، الأحوال الاجتماعية ، الأحوال الاقتصادية، المعتقدات الدينية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/229105

مقالات وعروض



حركة «الدوارين» في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين*

محمد المبكر

عرف شمال إفريقيا خلال القرن الرابع والخامس للميلاد حركة قامت بها مجموعة من الناس يعرفون في النصوص المعاصرة لهم باسم «الدوارين» (1) *Circumcelliones* (2).

1 — إشكالية الموضوع والصعوبات التي تطرحها المصادر.

المعروف عن الدوارين في المصادر المعاصرة لهم أنهم ظهروا في خضم الصراع الذي قام بين الكنيسة الكاثوليكية الافريقية والكنيسة التي انشقت عنها حوالي سنة 312م. والتي أصبحت تدعى فيما بعد «الكنيسة الدونانية» نسبة إلى دوناتوس *Donatus* أحد كبار زعمائها الأوائل. فخلال هذا الصراع، برز الدوارون كأداة قهر في خدمة الكنيسة الدوناتية. بحيث كانوا يهاجمون

---

* عرض للرسالة التي نوقشت تحت نفس العنوان في كلية الآداب بفاس بتاريخ 12 يوليوز 1982.

(1) فضلت الاحتفاظ بهذه الترجمة لكلمة *circumcelliones* اللاتينية، لأنها لا تزيد عن كونها مطابقة لفكرة الدوران حول شيء معين *(cella)*، ولا تحمل في طيها فكرة تحقير. وقد استعمل أحمد صفر في «مدنية المغرب العربي في التاريخ»، تونس، 1959، ص 367، نفس الترجمة، وإن أردف ذلك بتعريف محقر : «عصابات من اللصوص من نوع «الفلاقة» كانوا يعرفون باسم «الدوارين» *(circoncellions)*، أي الذين يدورون ويحومون حول الضيعات وتبعه في استعمال الكلمة مترجما كتاب شارل اندريه جوليان «تاريخ إفريقيا الشمالية تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الاسلامي 647 م»، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، النشرة الثالثة، 1978، ص 297 وما بعدها.

(2) الكلمة اللاتينية مركبة من جزءين *circum* بمعنى (دائر) حَوْل، و *cella* التي تحتمل عدة معاني. ومعناها الأول: «هري»، أو «مستودع المؤن» (من حبوب أو زيوت أو خمور).

انظر :

GAFFIOT, F. Dictionnaire Latin-Français, Paris, 1934 : «circumcelliones» p.308, col. 3 ; «cella», p.285, col.2.

الكنائس الكاثوليكية ويحرقونها وينهبونها، ويتعرضون للأساقفة والشمامسة الكاثوليك بالقذف والشتم، وأحياناً بالتعذيب والقتل. وتذكر المصادر أيضاً أن «الدوارين» كانوا يعيشون في الأرياف وضواحي المدن، ويتنقلون من مكان إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم، وأنهم كانوا يقومون بكثير من الأعمال الخارجة عن القانون، فكانوا يهاجمون الأغنياء، وينهبون الضياع، ويفرضون على الدائنين إبراءات ذمة للمديونين، ويقلبون أحياناً الأوضاع بين الأسياد والعبيد بحيث كانوا يرغمون بعض الأسياد على النزول من عرباتهم والهرولة أمام عبيدهم الذين يتبوأون مقاعد الأسياد. وقد نهجوا طريقة العنف والتهديد مع كل الأغنياء الذين رفضوا الرضوخ لمطالبهم. كما وصلت جرأتهم أحياناً إلى حد أنهم كانوا يهاجمون المكلفين بجمع الضرائب في الأرياف. وتشير المصادر أيضاً إلى بعض التصرفات الغريبة التي كانوا يقدمون عليها. ومن تلك التصرفات أنهم كانوا يميلون إلى الاستشهاد *(Martyrium)*، فينتحرون بالغرق أو بالاحتراق أو بالارتماء من أعلى الجروف. بل إنهم كانوا أحياناً يرغمون المارة على قتلهم. ومن تلك التصرفات أيضا أنهم كانوا يقيمون ولائم وحفلات صاخبة عند أضرحة الشهداء، ويصاحبون العذارى المنذورات لخدمة الكنيسة الدونانية *(Sanctimoniales)*.

ويتفق المؤرخون المحدثون على أن الدوارين شكلوا خطراً كبيراً على النظام الروماني في إفريقيا، ذلك أنهم «احتكروا» مظاهر العنف في تلك الفترة، وتطلب ردعهم تدخل الجيش عدة مرات. ولكن اتفاق المؤرخين يقف عند هذا الحد، وتبدأ الاختلافات حول حقيقة الدوارين وحركتهم.

فمن هم «الدوارون»، وما هي طبيعة حركتهم، وما هي علاقتهم بالدوناتية ؟ هذه هي القضايا الرئيسية الثلاث التي حاول البحث الاجابة عنها.

كانت جدة الموضوع من جملة الأسباب التي دفعتني إلى اختياره، بحيث لا توجد على حد علمي دراسة مستقلة ومتكاملة عن الدوارين باللغة العربية ولا باللغات الأجنبية. وكل من طرق الموضوع تناوله في نطاق أشمل، إما في إطار أطروحات عن الدوناتية، وإما في عمل عن تاريخ شمال إفريقيا في العصر القديم، بحيث أن الدراسات المخصصة للدوارين لازالت عبارة عن عدد من المقالات المقتضبة والمتناثرة في الدوريات المتخصصة. ومن الدوافع إلى اختيار هذا الموضوع أيضا ذلك الغموض الذي أحاط بتحديد ماهية الدوارين وكنه حركتهم وموقعهم بالنسبة إلى الدوناتية، وبالتالي تقويم دورهم في أحداث إفريقيا في هذه المرحلة الهامة من تاريخها القديم.

صادفتني صعوبات عدة في تحقيق هدفي بدراسة هذا الموضوع، منها صعوبات عملية وأخرى علمية مرتبطة بطبيعة الموضوع، وأول الصعوبات كانت ندرة المصادر و المراجع بمكتباتنا، وأحياناً صعوبة الوصول إليها. ومن ثم كان من الضروري اللجوء إلى عدد من المؤسسات العلمية ودور النشر والمكتبات الأجنبية، فضلا عن عدد من الباحثين الأجانب المهتمين بتاريخ شمال إفريقيا في المرحلة المدروسة. صعوبة أخرى صادفتني هي تعدد جنسيات الباحثين ومن ثم تعدد لغاتهم،

فضلا عن أن بعض النصوص اللاتينية خاصة كتاب «أبطاتوس» الميلي (3) (من مدينة *Milev*، ميلة حاليا بالجزائر) — لم تترجم بعد إلى لغة سهلة المنال، وأن طبيعة تلك النصوص المسيحية واللغة اللاتينية «المتأخرة» التي كتبت بها تفرضان مجهوداً إضافيا لاستيعابها.

أما الصعوبات المرتبطة بطبيعة الموضوع، فتأتي أولا من كون الاشارات إلى الدوارين متناثرة في عدد كبير من المصادر كان من اللازم التوفر عليها لجمع تلك الاشارات وترتيبها قبل دراستها. وتتكون تلك المصادر من الكتابات الدينية المعاصرة للدوارين، خاصة كتابات إبطاتوس (4) و «أغسطينوس» (5) *(Saint - Augustin)*، ومن بعض الوثائق الكنسية خاصة «محضر مناظرة قرطاج» التي تمت بين الدوناتيين و الكاثوليك سنة 411 (6)، وأيضاً من بعض القوانين الرسمية الصادرة ضد الدونانية والموجودة في «جامع قوانين ثيودوسيوس» (7).

صعوبة ثانية تطرحها المصادر هي أنها في معظمها كتابات دينية تشمل ما كتب في إطار الجدل اللاهوتي الذي كان رائجا بين الكنيستين المتناحرتين الكاثوليكية والدوناتية، ومن ثم فإنها لم تهتم كثيراً بالوضعية الاقتصادية والاجتماعية للدوارين. هذا فضلا عن أن أغلبها من انتاج كتاب كاثوليك متحيزين لحزبهم، بحيث أن الكتابات الدوناتية التي وصلتنا قليلة، ووصلنا معظمها عن طريق الكتاب الكاثوليك الأفارقة الذين كانوا يوردون نبذاً منها للرد عليها. وتلك الكتابات الدوناتية لم تذكر «الدوارين» إسميا، بحيث يصعب أن نميز فيها بين الدوارين وعامة الدوناتيين. أما بالنسبة للكتابات المنقوشة أو الآثار بصفة عامة. فإنها لم تعط لحد الآن معلومات دقيقة عن الدوارين، بل لا يمكن استغلالها إلا جزئياً في دراسة الدوناتية طالما أنه يصعب في غالب الحالات التمييز بين ما هو دوناتي وما هو كاثوليكي من تلك الآثار، إذا استثنينا بعض الكنائس التي تم التعرف عليها بكامل التأكيد.

هذا النقص «الكيفي» في المصادر المتعلقة بالدوارين كان يفرض إجراءين : أولهما أن تستغل

---

(3) *OPTATUS, De schismate donatistarum ; éd. Ziwsa, C., in «Corpus scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum» (C.S.E.L.), t. 26, Vienne, 1893*

(4) *OPTAT. ibid, III, 4 ; C.S.E.L., t.26, pp.81-85.*

(5) آخر نشرة علمية لأعمال «القديس اغسطينوس» هي التي أصدرتها مؤسسة الدراسات الأغسطينية (*Etudes augustiniennes*) في سلسلة «المكتبة الأغسطينية»: *«Bibliothèque Augustinienne»*. ولازالت تتابع نشرها لبقية أعماله (أصدرت حتى الآن 37 جزءاً من مجموع 85). وتقع كتابات اغسطينوس ضد الدوناتية في خمسة أجزاء: *S.Augustin, Traités anti-donatistes, Bibl. August.: Desclée de Brouwer, Paris, t, 28 (1963) ; t.29 (1964) ; t.30 (1967) ; t. 31 (1968) t.32 (1965)*

(6) *Actes de la conférence de carthage en 411, éd.S.Lancel. dans les «Sources Chrétiennes», Paris, Ed. du Cerf, 1972-1975 (3 tomes).*

(7) *Codex theodosianus, ed Th. Mommsen et P. Meyer, Berlin, 1903.*

كل الاشارات استغلالًا كاملًا، وثانيهما أن تؤخذ المصادر بكامل الحذر، بحيث أن لا تنزع منها كل قيمتها الاخبارية. ولكننا نتفحصها مليا حتى نفرق بين ما هو جدل ومجازفة، وما هو معقول يمكن في السياق التاريخي. بل إن ماسكت عنه الكتاب الكاثوليك أحياناً ينبغي هو الآخر أن يؤول ويؤخذ بالاعتبار. وهي عملية صعبة في كثير من الأحيان، ولكنها السبيل الوحيد لتجاوز التناقضات والوصول إلى نتيجة يقبلها العقل. وهناك صعوبة أخيرة مرتبطة بطبيعة الموضوع، وهي أن له امتداداً في محورين رئيسيين : أولهما الدوناتية كحركة انشقاق مسيحية تشيع لها الدوارون وكفكر ربما كان من شأنه أن يحركهم، وثانيهما الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة إذ ذاك خاصة في الأرياف التي نشطت بها حركة الدوارين. وفي كلا المحورين، لازالت الأبحاث لم تصل بعد إلى نتائج قارة ومقبولة لدى جمهرة الباحثين. لذا كان من اللازم الاطلاع على عدد كبير من المراجع القديمة والحديثة في الموضوع، خاصة دراسات *St. Gsell* و *M. Rostovtzeff* و *J.kolendo* و *G.ch Picard* و *Cl. le pelley* وغيرهم فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية، و *P.Monceaux* و *W.H.C.* و *Frend* و *E. tengström* وغيرهم بخصوص الدوناتية.

2 ـــ طريقة معالجة الموضوع

ينقسم البحث إلى سبعة فصول وتمهيد ودراسة لأهم المصادر و المراجع وملحق بأهم النصوص المستعملة في البحث. كما يتضمن قائمة بالمصادر والمراجع وثلاث خرائط وكشافا للأعلام والأماكن.

يعرض التمهيد مشكلة الدوارين كما تطرحها النصوص القديمة والأبحاث، ويحدد القضايا الرئيسية والتساؤلات التي حاولت الاجابة عنها في البحث. تطرقت بعد ذلك في الفصل الأول إلى محاولة تحديد الاطار الاقتصادي والاجتماعي الذي ساد في الأرياف الافريقية زمن ظهور حركة الدوارين. وكان الهدف من التركيز على البوادي دون الحواضر، والظروف الاقتصادية والاجتماعية دون سواها هو التركيز بالذات على مجال حركة الدوارين التي كانت حركة ريفية حسب كل الشهادات التي وصلتنا، والتركيز في آن واحد على ما من شأنه أن يفسر القلاقل الاجتماعية التي تزعمها الدوارون في تلك الأرياف. وهكذا حاولت ما أمكن تحديد نظام ملكية الأراضي وطريقة استغلالها، مبرزاً بنفس المناسبة الفئات الاجتماعية الموجودة في الأرياف، سواء ملاك الأرض أو العاملين بها.

وفي الفصل الثاني، كان المجال مهيئاً للبحث عن ماهية «الدوارين» ومكانتهم الاجتماعية في الأرياف الافريقية. فناقشت الآراء المطروحة في هذا الصدد، وهي على الخصوص ثلاثة : الرأي الأول الذي يعتبر الدوارين عمالا فلاحيين متنقلين (8)، والرأي الثاني الذي يرى أنهم عبارة عن

(8) *SAUMAGNE, ch, «Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? Les circoncellions d'Afrique», «Annales d'Histoire Economique et sociale», t.6, 1934, pp. 351-364.*

فئات شعبية كانت ترتاد أضرحة الشهداء (9)، والرأي الثالث الذي يعتبر أنهم كانوا رهبان متنقلين (10). ثم رجحت ما رأيته راجحاً من تلك الآراء اعتماداً على ما وصلت إليه في الفصل الأول.

وفي الفصل الثالث، طرحت مشكلة طبيعة حركة الدوارين، وخصصت الحديث عن الجانب الاجتماعي لتلك الحركة محللا النصوص الرئيسية التي تبرز ذلك الجانب والتي تدحض في آن واحد الآراء القائلة بأن حركة الدوارين كانت «فوضوية». كما ناقشت في هذا الفصل ما كان مطروحاً من آراء حول الجانب الاجتماعي من حركة الدوارين وتعليل تصرفاتهم.

وفي الفصل الرابع، كان من اللازم بحث بعض الجوانب الدينية التي طبعت تصرفات الدوارين كالانتحار رغبة في الحصول على درجة الشهادة وكزيارة أضرحة الشهداء والتبرك بذخائرهم، وهو جانب ركز عليه بعض المحدثين للقول بأن حركة الدوارين كانت دينية صرفة. وخلصت في نهاية التحليل إلى أن الحل يكمن في العلاقات بين الدوارين والدوناتية.

وهكذا خصصت الجزء الأخير من الرسالة وهو عبارة عن ثلاثة فصول لبحث هذه العلاقات وتطورها. فعرضت لبداية تلك العلاقات في الفصل الخامس. وكانت مناسبة لتحديد بداية حركة الدوارين. وعلى ضوء أقدم نص أورد ذكرهم، وهو نص من كتاب «أبطاتوس» — تطرقت إلى نوعية العلاقات التي ربطت الدوارين بالدوناتية في مرحلة أولى. ثم خصصت الفصل السادس لأحداث نوميديا التي ساهم فيها الدوارون بجانب الدوناتيين حوالي سنة 347، فبحثت طبيعة تلك المساهمة محاولا تحديد أدوار الطرفين ومواقفها، وتطور العلاقات بينهما خلال تلك الأحداث واثرها. وأخيراً عرضت في الفصل السابع نوعية العلاقات بين الدوارين والدوناتية على ضوء ما وصلنا من شهادات «أغسطينوس» خاصة. وحاولت إبراز بعض التناقضات في تلك الشهادات، محدداً ما أمكن تطور العلاقات بين الدوارين والدوناتيين في تلك المرحلة.

3 — نتائج البحث

أجمل هنا باختصار أهم نتائج البحث.

ا — ففيما يتعلق بماهية الدوارين، يتجلى أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية محددة حسب مايبرز من قانون «هنوريوس» *Honorius* الصادر سنة 412 (11)، والذي يحدد قيمة الغرامات المفروضة على الدوناتيين بتناسب مع الامكانات الاقتصادية لكل فئة من فئات المجتمع الافريقي،

(9) *FREND, W.H.C. «The donatist church. A movement of protest in Roman North Africa», Oxford, clarendon Press, 1952, pp.171 ss.*

(10) *Calderone, S, «Circumcelliones,», «Parola del Passato», XX II, 1967, pp.94-109.*

(11) *Cod.Theod., op.cit, XVI 5,52, éd, Mommsen et Meyer, op cit, pp 872-73.*

ومن بينها فئة الدوارين. وحسب قيمة الغرامة المفروضة على الدوارين، وتبعاً لترتيبهم في سلم الفئات الاجتماعية المغرمة، يتضح أنهم كانوا أحراراً وفي مرتبة أعلى من العبيد و «المزارعين بالحصة» *(coloni)*. ويتجلى كذلك من نفس القانون أنهم كانوا يعيشون في الملكيات الكبرى التابعة للامبراطور أو لبعض الملاك الكبار. وهذه المعطيات تتلاءم تماماً مع الصورة التي يظهر بها الدوارون في المصادر الكاثوليكية بعد تجريدها من تعابير القذف والشتم الموجهة إليهم وإلى الدوناتيين. فتلك المصادر تشير أيضاً إلى أنهم كانوا يعيشون في الأرياف، ويتنقلون عبر الأقاليم ولهم مستوى اقتصادي وإجتماعي وضيع، فضلا عن أنهم كانوا قليلي «الترومن» ولا يتكلم أغلبهم باللغة اللاتينية وهذا ما يدعم في اعتقادي رأي الباحث *ch. Saumagne* (12) الذي رأى سابقاً أن الدوارين كانوا نوعاً من عمال مياومين يتنقلون عبر الأقاليم للمشاركة في مختلف غلات السنة من حصاد وقطف العنب والزيتون. فالمعطيات التي يمكن استقاؤها من قانون «هنوريوس» المذكور وكذا من المصادر الكاثوليكية لا تنطبق لا على العبيد ولا على المزارعين. ولكنها تتلاءم تماما مع العمال الموسميين المتنقلين الذين يشكلون ظاهرة قديمة وقارة في إفريقيا الشمالية، بحيث كانوا موجودين منذ الفترة القرطاجية. ويرتبط وجودهم على الأرجح بنمط عيش الترحال الذي كان سائداً في بعض السهوب الافريقية لدى عدد من السكان، وهو نمط لم تستطع روما أن تقضي عليه رغم ما حاولته من تحديد مجالات الشعوب (سياسة *Limitatio*)، وتضييق الخناق عليها كي تستقر في تلك المجالات. أو تلتحق للعمل بالضيعات، أو تجتاز الحدود إلى الصحراء.

أما الآراء الأخرى التي تفسر ماهية الدوارين فإنها لا ترتكز على أساس متين. فالنصوص التي اعتمدها الباحث الايطالي *S.Calderone* للقول بأن الدوارين كانوا رهباناً متنقلين (*cellae* بمعنى «بيوت الرهبان») (13) إما نصوص متأخرة وقع فيها الكتاب في خلط بين الرهبان الذين كانوا يغادرون أديرتهم في القرن الخامس وبين الدوارين الذين وجدوا منذ سنة 340م على الأقل، وإما نصوص غير مقنعة كالمعارضة التي وضعها أغسطينوس بين الدوارين الدوناتيين والرهبان في مصر. هذا فضلا عن أن الدوناتيين كانوا يعارضون مبدأ الرهبنة لدرجة أن أحد أساقفتهم يعيب على أغسطينوس كونه أدخل هذه الظاهرة إلى إفريقيا. ثم إن الدوارين لو كانوا رهباناً لما فرض عليهم القانون غرامة عشرة أرطال من الفضة (حسب قانون هنُوريوس المذكور). لأن الرهبان مبدئيا لا يملكون الثروات.

أما رأي *W.H.C. Frend* القائل بأن الدوارين كانوا خليطاً من السكان يجمعهم نشاط واحد هو ارتياد أضرحة الشهداء، فإنه مجرد تأويل لكلمة *Cellae* التي لا تعني حسب رأيه مستودعات

---

(12) *Saumagne, ch, op.cit, p.359.*

(13) *Calderone, s.op. cit. p.99 ss.*

المؤن في الضياع، وإنما «أضرحة الشهداء» (*martyrs'shrines*) (14). ولكي يكون هذا الاشتقاق المقترح لكلمة *circumcelliones* صحيحا، فمن المفروض أن يختص الدوارون بهذا النشاط دون غيرهم، وأن يكون ذلك النشاط ظاهرة خاصة بالأرياف، وكلاهما غير صحيحين. وأخيراً، لو افترضنا أن الدوارين هم «زوار الأضرحة» لسقطنا في نفس المشكل، إذ أن الفئة الوحيدة التي كانت لها الحرية والوقت الكافي للتنقل هي فئة العمال الموسميين، لا المزارعين ولا العبيد. لذلك يبدو من الأقرب إلى الصواب أن نعتبر أن الدوارين كانوا ينتمون أساساً إلى فئة إجتماعية محددة هي فئة العمال المتنقلين، وإن كان هذا لا يمنع التحاق بعض العبيد و المزارعين (*coloni*) بجماعات الدوارين الثائرة.

وبطبيعة الحال، فإن الواقع الاقتصادي للدوارين لا ينفي أن يكون لهم واقع ديني كدوناتيين يهاجمون الكنائس الكاثوليكية ويرتادون أضرحة الشهداء، أي أنه ليس من الضروري تجريد هم من كل السمات التاريخية التي ظهروا بها في خضم الصراع بين الدوناتيين والكاثوليك. كل ما في الأمر أن الواقع الاقتصادي للدوارين كعمال متنقلين يبدو سابقاً على واقعهم الديني الذي خلدتهم به المصادر الكاثوليكية.

ب ــ طبيعة حركة الدوارين :

انقسم الباحثون حول هذه القضية إلى تيارين : تيار يركز على الطبيعة الاجتماعية والثورية لحركة الدوارين (15)، وتيار يرى أن تلك الحركة كانت دينية أساساً. وقد خلصت بعد استعراض النصوص المتوفرة من أقدمها إلى أحدثها إلى أن الحركة ظلت موجهة ضد الملاك والأسياد والمرابين، أي أن الجانب الاجتماعي لا يمكن أن ينكر، بل أكثر من ذلك لم تكن الحركة «فوضوية» ولا تخريبية، وإنما كانت حركة منظمة لها مبادئها وأهدافها وطرق عملها.

وعلى هذا الأساس، لابد من الرجوع إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية القمينة بتعليل تصرفات الدوارين. وهنا على عكس ما رآه *G.ch. Picard* (16)، لا يبدو أن تزايد السكان في الفترة الرومانية بسبب «خصوبة الامهات الليبيات» على حد قوله هو الذي كان من وراء حركة الدوارين. بل يبدو أن الأسباب الرئيسية ترجع إلى الأزمة التي عرفتها إفريقيا منذ القرن الثالث م.

---

(14) *FREND, W.H.C., The Donatist church... op.cit ; idem, circumcellions and Monks, Journal of theological studies, xx, 1969, pp.542-549*

(15) يمثله خاصة «بريصون»

BRISSON, J.P., «Autonomisme et christianisme dans l'Afrique,romaine, de : Septime-Sévère à l'invasion vandale, Paris, De Boccard, 1958, pp.325 ss.

(16) *PICARD, G.C., La civilisation de l'Afrique romaine, Paris, Plon, 1959, pp.67-68 et p. 156.*

والتي تفاقمت خلال القرن الرابع إثر الاجراءات الجبائية وتزايد ضغط الملاك على الفلاحين. وقد تجلت مظاهر تلك الأزمة في هجر الملاك لبعض الأراضي التي كان استغلالها غير مربح لهم. وواكب هذه الأزمة تزايد ضغط الأفارقة الأحرار على الحدود الرومانية وبدأوا يتسللون داخل تلك الحدود ويلتحق بعضهم بصفوف العمال الموسميين، مما يفسر جزئيا أن الدوارين كانوا في معظمهم من العناصر الوطنية غير «المترومنة» أو قليلة «الترومن». وكان احتكار الأراضي من طرف الملاك الكبار ومعظمهم من غير القاطنين في إفريقيا، وكذا تناقص فرص العمل بالنسبة للعمال الموسميين من جملة الأسباب التي أدت إلى قيام حركة الدوارين وتزعمهم للاضطراب في الأرياف.

أما بعض المظاهر الدينية للحركة كتقديس الشهداء الذي ركز عليه *W.H.C FREND*، وكذلك الانتحار الديني الذي كان يتعاطاه الدوارون حسب الكتابات الكاثوليكية والذي ركز عليه مؤخراً *Cl. LEPELLEY* (17)، فإنها تصرفات لا ترقى لكي تعطي حركة الدوارين طبيعة دينية محضة. فبعد تحليل بعض النصوص الكاثوليكية ومقارنة تصرفات الدوارين بتصرفات غيرهم في إفريقيا وخارجها، يتضح أن بعض المظاهر المنسوبة إلى الدوارين دون غيرهم، لم تكن حكراً على تلك الفئة من ناحية أولى، وأن النصوص الكاثوليكية من ناحية ثانية بالغت في تلك التصرفات نظراً لظروف المساجلة اللاهوتية بين الكاثوليك والدوناتيين، ولم تربط على الخصوص بين ظاهرة الاستشهاد وظروف الاضطهاد الذي كان يعاني منه الدوارون. أي أنها لم تضع تلك الظاهرة في إطارها التاريخي الحقيقي.

على أن كل هذا لا يبرر القول بأن حركة الدوارين كانت خالية من الاهتمامات الدينية. فالواضح من عدة شهادات كاثوليكية أورسمية أن الدوارين كانوا في عدة أحيان يساندون الدوناتية ويدافعون عنها ضد الكنيسة الكاثوليكية الافريقية. وهو ما يطرح قضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية.

ت ــ العلاقات بين الدوارين والدوناتية.

قمت برصد لتلك العلاقات من بزوغ الانشقاق الدوناتي إلى صدور القوانين الصارمة التي انهارت إثرها الكنيسة الدوناتية بعد مناظرة قرطاج في سنة 411 م. وكانت النتيجة أن تلك العلاقات مرت بثلاث مراحل. ففي المرحلة الأولى لم يكن الدوارون في علاقة تبعية «للاكليروس» الدوناتي، ولم تكن أهداف الطرفين متطابقة، لدرجة أن الكنيسة الدوناتية طلبت تدخل الجيش ضد الدوارين في نوميديا شمال الأوراس حوالي سنة 340 م. أما في المرحلة الثانية التي بدأت

(17) *LE PELLEY, cl., «iuvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique antique», «Antiquités Africaines», t.15, 1980. p.261-271.*

بأحداث مدينة *Bagai* (قصر باغاي) في نفس المنطقة حوالي سنة 347، فإن التحالف والتآزر بدأ يتوثقان تدريجيا بين الدوارين و «الاكليروس» الدوناتي، وخاصة منه الكهنة الصغار في أرياف نوميديا، والذين كانوا يعيشون في ظروف مشابهة لظروف رعيتهم من البسطاء، ومن جملتهم الدوارون. فتمت عملية تفاعل بين حركة الدواين كحركة اجتماعية مناهضة للنظام الروماني، والدوناتية كحركة مضطهدة من لدن نفس السلطات الرومانية، الأمر الذي أدى بالدوارين إلى تبني قضية الدوناتية، «فانزلقت» حركتهم من المطالب الاجتماعية إلى المطالب الدينية. وفي المرحلة الثالثة، اتضحت مظاهر هذا التحول بحيث أصبح الدوارون يهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك، وذلك أحياناً تحت قيادة بعض رجال الدين الدوناتيين. ومع ذلك، فقد كان لهذا التحول حدوده، بحيث أن الدوارين ظلوا يهاجمون الملاك والأسياد و المرابين، أي أن أهدافهم الأصلية لم تختف تماماً. هذا فضلا عن أن «الاكليروس» الدوناتي خاصة في القمة ظل يأخذ حذره من الدوارين ويتلافى في التورط في أعمالهم. لذا ففي اعتقادي أن حركة الدوارين رغم ما طبعها من سمات دينية لا يمكن انكارها ظلت حركة إجتماعية بالأساس، وأنها كانت نتاج الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفتها البلاد في تلك الفترة. وفي اعتقادي أيضا أن التحالف الذي تم بين الدوارين والدوناتيين لم يكن بسبب «ايديلوجيا» إجتماعية كانت تميز الدوناتية عن الكاثوليكية منذ البداية. فالفوارق العقدية بين الكنيستين كانت شبه منعدمة لأن الدوناتية لم تكن في حقيقة الأمر «هرطقة» *(hérésie)*، ولكن «انشقاقاً» *(Schisme)* من عمل حزب أو مجموعة من الأساقفة (18). لذا، فإن ظروف اضطهاد الدوناتية هي التي أدت بالدوناتيين رغما عنهم على ما يبدو إلى الاعتماد أكثر على الفئات «الدنيا» من المجتمع، ومن بينها فئة الدوارين.

لذلك، فإن ما يقال عادة عن الدوناتية من أنها كانت «كنيسة الفقراء» لا يمكن قبوله إلا بتحفظ. وبتدقيق العبارة، فإن الدوناتية أصبحت من حيث تكوينها «السوسيلوجي» تضم نسبة كبيرة من الفقراء في نهاية القرن الرابع، خاصة بعدما تخلى عنها العديد من الأغنياء، إلا أن هذا لم يكن بسبب «إيديلوجيا» مسيحية متميزة تمدح الفقر وتندد بالثروة، الشيء الذي لم يرد عند الدوناتيين (19) ولا عند خصومهم، بل بسبب اضطهاد الدولة لهم. فالأغنياء لم يكونوا كلهم

(18) انظر مثلا :
- *BRISSON, J.P., op. cit., p.130 ss.*
- *Warmington, B.H., «The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest» cambridge, 1954, pp.79-80.*

(19) ظهرت بعض بوادر تلك «الايديلوجيا»، إلا أنها كانت متأخرة ومستعملة لأغراض جدلية. انظر :
BRISSON, J.P., op. cit. p 352
FREND, W.H.C., op cit., p.331 ss.

كاثوليك، والفقراء لم يكونوا كلهم دوناتيين. هذا فضلا عن أن الكنيسة الدوناتية ظلت تسعى إلى اعتراف الدولة بها على أنها الكنيسة الكاثوليكية الحق، ولم تتورع عن اللجوء إلى السلطات في عدة مناسبات، وعلى الخصوص لطلب تدخل الجيش ضد الدوارين. وهذه النتيجة من شأنها في اعتقادي أن تعيد تحديد الأدوار لكل من الدوناتية والدوارين، وأن تعيد النظر كذلك في تفسير الدوناتية.

الثقافة والأدب في مغرب ما بين منتصفي القرنين 17 – 18م

محمد العمري

القسم الثاني من الفصل الأول من مقدمة تحقيق كتاب المسلك السهل لمحمد الصغير الافراني (*)

1 – انتعاش الثقافة والأدب :

أجمع المؤرخون والباحثون على القول بانتعاش الثقافة عامة ، والثقافة الأدبية خاصة في الفترة التي تلت تخريب الزاوية الدلائية ، أي في الثلث الأخير من القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر ، وذلك بالقياس إلى ما آل إليه حال الثقافة والأدب بعد عصر المنصور الذهبي وتصدع الوحدة السياسية[1] . ومن أقدم الشهادات قول الإفراني في معرض الثناء على الدولة العلوية : «حدثنا غير واحد من أشياخنا ، قال : كنا في زمن الشبيبة نطلب العلم ونسأل عن مسائله على صورتها ولا نلقَى من يضلع به ، بل كانت الأرجوزة المسماة بالسلم لا يعرفها غير

(*) من رسالة للباحث ، تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا .

(1) انظر على الخصوص رأي جاك بيرك في كتابه : Al-Youssi p. 117 وعبد الله كَنون في النبوغ 284/1 ، 321 ، والدكتور عباس الجراري في موشحات مغربية 133 — 134 ، ومحمد الأخضر في الحياة الأدبية 75 .

رجل أو رجلين ، فلما مهد الله لهذه الدولة الأكناف وأسمَى قدرتها وأناف ، تدفقت على الناس العلوم ، ودانت صعاب الفنون ، حتَّى عاد صغارُ الطلبة يعرفون فنوناً عديدة ، ويكون لهم فيها عارضة مديدة ، وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الأعلام ، لهم القدم الراسخ في العلم ، واليد الطولى في الإتقان ، وألفوا تآليف حسنة» [2] .

وإذا كان هذا النص لا يبين أسباب هذا الانتعاش فإنه يحدد مظاهره الثلاثة وهي :

- توفر العلم بعد عدم .
- ارتفاع مستوَى الطلبة .
- تخرج نخبة من الأعلام المرموقين بشهادة مؤلفاتهم .

وسنلقي الضوء على هذه المظاهر الثلاثة بصورة متكاملة فيما يأتي من فصول ، سواء في حديثنا عن المؤثرات العامة في ثقافة العصر ، أو عن طابعها العام . ويبقَى المسلك السهل نفسه أحسن شاهد على ارتفاع مستوَى طالب العلم المغربي في القرن الثامن عشر ، ويمكن استخلاص الدلالة نفسها من مؤلف آخر وهو الأنيس المطرب لابن الطيب العلمي ، وقد مات شابا .

وفيما يخص الأدب يرَى جاك بيرك «أن المؤلفات الأدبية الحقة جد نادرة ، فبقطع النظر عن (المحاضرات) لا نجد في الفترة الفاصلة بين نفح الطيب للمقري (ت 1632) والأنيس المطرب لابن الطيب العلمي (ت 1721 — 23) غير عنوان واحد ، أي كتاب الحلل السندسية وهي مقامات على طريقة الحريري ..» [3] .

ولم يعرف المغرب شاعراً مجيدا طوال الفترة الفاصلة بين عبد العزيز الفشتالي المتوفي سنة 1032هـ/ 1622م واليوسي المتوفي سنة 1102/ 1681 .

ومع اليوسي ، ومع أستاذه محمد المرابط الدلائي وأحمد بن عبد الحي الحلبي تبدأ نهضة ثقافية عامة تستمر إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر

---

(2) مقدمة روضة التعريف .
والسلم أرجوزة في المنطق لعبد الرحمن الأخضر الجزائري من رجال القرن السادس عشر .
(3) Al-Youssi p. 117

الميلادي . وتنتسب إلى هذه الفترة مؤلفات كثيرة ومتنوعة في اللغة والبلاغة والأدب ودواوين الشعر والمقامات والرسائل وغيرها . كما يستقطب هذا العصر باقة من الأسماء الشهيرة في الثقافة المغربية وعلى رأسها الحسن اليوسي وابن زاكور والعلمي وعلي مصباح والافراني ومحمد الشرقي العالم اللغوي .

وقبل أن نخوض في الحديث عن طوابع هذه الثقافة وقيمتها نحاول معرفة التربة التي نمت فيها والأسباب التي ساعدت في انتعاشها ، وهي لا تعدو في أغلبها ارتباط العلماء والأدباء بجهات مختلفة ، واستفادتهم مما توفره من وسائل مادية أو معنوية في سبيل الانتعاش الثقافي أو من المادة العلمية نفسها . ونجمل هذه المؤثرات فيما يلي :

1) إثمار جهود الدلائيين وأثر الزوايا

كان للزوايا أثر متفاوة في سد رمق الثقافة الدينية العربية بعد سقوط دولة المنصور ، وذلك بإيواء الطلبة والأساتذة وإطعامهم . وكان أثر الزاوية الدلائية مرموقا وأساسيا لعدة أسباب[4] .

تأسست هذه الزاوية على يد أبي بكر بن محمد الدلائي المتوفى سنة 1021/ 1614م . واقتصر عملها في أول الأمر على التعليم والتربية الروحية وتوفير أسبابها المادية والمعنوية ، وذلك قبل أن يتجه طموح الأحفاد من أبنائها إلى بسط النفوذ السياسي على مناطق من المغرب .

وممن تخرجوا من هذه الزاوية أحمد المقري صاحب النفح ، والحسن اليوسي وغيرهما . وعندما هدمها الملك رشيد سنة 1079هـ نقل علماءها إلى فاس ، وعلى رأسهم محمد المرابط والحسن اليوسي ... ثم نشأ جيل من الأبناء والأحفاد بفاس تحت عناية الجيل الأول فبرز أدباء علماء مثل محمد بن أحمد المسناوي أستاذ الإفراني ، ومحمد بن أحمد الشاذلي ومحمدِ البكري شارحي رائية اليوسي .

وفي عناية رجال هذه الزاوية باللغة والأدب يقول الإفراني : «وكان لأهل

---

(4) انظر البدور الضاوية ، ونزهة الحادي 274 ــ 286 ، والزاوية الدلائية ، وخصوصا الصفحات 71 ــ 114 ، 240 ــ 147 .

الزاوية اعتناء بالعلم والأدب وارتياح لرائق الأشعار ومنتخبِ الخط ، ولقد نبغ من أَبنَائها جماعة ممن لهم الأسبقية في ذلك المضمار ، والإجادة التي أشرقت إشراق الأقمار ... ومن أشهرهم الأَديب العلامة أبو عبد الله سيدي محمد الطيب بن المسناوي ابن سيدي محمد بن أبي بكر ، وأشعارهُ وموشحاته مشهورة ، ومن أعيانهم في التضلع في العلوم ، خصوصا علم العربية ، أبو عبد الله محمد المرابط ابن محمد بن أبي بكر ، له شرح على التسهيل لم يؤلف مثله ، وشرح البسيط والتعريف ، وشرح الورقات ، وغير ذلك . وكان له في الأدب الباع المديد ، وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة ، ومسائل أهل الدلاء طويلة عريضة ، ولو تتبعت ما لهم من النظام والنثار ، لأدّى ذلك إلى الملل والإكثار ولا يجهل فضلهم إلا الأغمار ، الذين قلوبهم بداء الحسد مريضة ، وإلا فرياض مفاخرهم بالكمالات أريضة»[6] .

وفي رسالة لمحمد بن الشريف العلوي إلى خصمه محمد الحاج الدلائي اعترافٌ صريح للدلائيين بالعلم ، ومما جاء فيها : «أما العلوم فقد أقررنا لكم فيها ، إنصافا بالتسليم»[7] .

وأغلب أساتذة الأدب في هذا العصر من أبناء الزاوية الدلائية ، ذلك أن وضعية الدلائيين اللغوية كبربر ، دفعتهم ، منذ البداية ، إلى الاهتمام بعلوم اللغة والأدب ، حتّى تفوقوا على غيرهم في هذا المضمار[8] . يقول الشيخ عبد الله كنون : «إن الثقافة الأدبية واللغوية كانت في الناحية التي درس فيها اليوسي أقوَى منها في فاس ، بل إننا نقول : إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء ، حيث درس اليوسي ، هي التي أحيت ذَماء الأدب في المغرب بعد عدم»[9] .

والواقع أننا لا نكاد نجد أديبا ومؤرخا مرموقا في هذا العصر لم يتلمذ لهم مباشرة أو بواسطة، وخصوصا للأساتذة الكبار، وهم محمد المرابط والحسن اليوسي

(6) نزهة الحادي 279 ـ 280 .
(7) الاستقصاء 7/ 17 .
(8) انظر (تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها) عند د.محمد حجي في كتابه الزاوية الدلائية 74 .
(9) خل وبقل 275 .

ومحمد بن أحمد المسناوي ، وهذا الأخير أكثرهم حظوة عند الشباب الأدباء وتأثيرا في جيل الإفراني . وكانت سياسة الملك رشيد بن الشريف وأخيه إسماعيل تقتضي جمع الزوايا بفاس لتسهيل مراقبتها ، فاستفادت المدينة من ذلك بعد أن كان الطابع الفقهي المحافظ غالبا عليها[10] .

ولما استقرت الدولة العلوية ولم يعد بإمكان الزوايا المتبقية أن تؤثر في الحياة السياسية مالت في الغالب إلى ممارسة التربية الدينية وتنمية الممتلكات وإقامة علاقات يسودها تبادل المنفعة مع مثقفي العصر ، فكانت بذلك ملجأ ومتنفسا للكثير من الأدباء والعلماء .

ومن الزوايا التي (مخزنت) في هذا العصر ، فحفظت بذلك وجودها ، الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد ، ولم يكن لها طموح سياسي منذ البداية ، والزاوية الناصرية بتامگروت بأقصَى الجنوب وقد أسعفها بعدها عن مركز الدولة بمكناس ، والزاوية الفاسية التي كانت تدعم «الشرعية» والمحافظة بفاس ، فظل عدد من الفقهاء والأدباء على اتصال وتعاطف مع هاته الزوايا ، وخصوصاً الشرقاوية والناصرية ، يجدون فيها ملجأ في الأزمات التي يتعرضون لها . وهكذا نجد اليوسي يدَاوم على شد الرحال إلى الزاوية الناصرية على بعدها[11] ، بينما ينطلق أديب هذه الزاوية ومؤرخها محمد بن موسَى الناصري نحو مراكش[12] وفاس ومكناس[13] لتوثيق الصلة بعلماء عصره ومنهم الإفراني ، وكان لمحمد الصالح بن المعطي الشرقي علاقة طيبة برجال العلم والأدب وإليه توجه الإفراني في محنته ، وبطلب منه نظم ابن

---

(10) حاول جاك بيرك التمييز بين مدرسة الجنوب (سوس ومراكش) ومدرسة الشمال (فاس) في كتابه Al-Youssi ، كما لاحظ أن فهرسة عبد القادر الفاسي ، وهو ذو تأثير واسع في الثقافة بفاس ، لا تحتوي على شيء ذي بال من الأدب الخالص .

(11) انظر المحاضرات 92 — 168 .

(12) له رحلة بعنوان الرياحين الوردية في الأخبار المراكشية ، وصفَ فيها المراحل التي قطعها من زاوية تمكروت إلى مراكش ، ثم تحدث عن إقامته بمراكش ومن لقي بها من العلماء والأدباء (مخطوطة الخزانة العامة برقم 88ج) .

(13) أجازه القاضي العميري إجازة شاملة بمدينة مكناس ، في حين أخذ هذا القاضي الطريقة الناصرية عن الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد (فهرسة العميري) .

شقرون المكناسي أرجوزته الطبية الشهيرة[14] . وكانت له مراسلات تشير إلى ذكريات الدراسة بفاس مع محمد الطيب المريني[15] . ومن الفقهاء الأدباء الذين كان لهم اتصال بالزاوية الشرقاوية القاضي العميري[16] . ويعتبر محمد الصالح نفسه من أدباء العصر ، يشهد لذلك أشعاره ورسائله المتناثرة في كتاب الروض اليانع الفائح . وعندما مات محمد الصالح سار ابنه المعطي على النهج نفسه من العناية بالعلم وجمع الكتب ، «وحصلت بيده خزائن من الكتب لكونه كان مليا ، واحتاج أربابُها في المسغبة العظمَى من عام خمسين»[17] .

وتفيد هذه الأبيات الموجهة من ابن زاكور إلى محمد الصالح ، أن أهل هذه الزاوية كانوا يجمعون الزكوات باعتبارها مصدراً من مصادرهم المادية[18] :

فخذ الزكاةَ ولا تخفْ   واجبر بها صدعَ السلفْ
وارفعْ بها خوف الدّيُون   وجذ أسبابَ التلفْ
واحللْ بها عقد الأسَى   وافلُل بها حدَّ الأسف

وفي مناطق متعددة من نواحي المغرب كانت توجد زوايا صغيرة أقل شهرة تؤدي عملها التعليمي مثل الزاوية المنانية في تافلالت إداوزداغ التي كان يدرس فيها محمد التفنگلتي وهو أحد أدباء العصر ، وكان من تلاميذها محمد بن إبراهيم الزرهوني صاحب رحلة الوافد . على أن ما آل إليه حالُ زاوية تاسفت نفسها يصور المحنةَ التي عاشتها الزوايا الموجودة في مجال المعارضة المراكشية[19] .

---

(14) الروض اليانع 148 ــ 292 .
(15) المصدر السابق 193 ــ 196 .
(16) فهرسة العميري .
(17) التقاط الدرر 2/ 421 ، ويقصد عام 1150هـ .
(18) الروض الأريض 233 ومما قال ابن زاكور في هذه الزاوية :
لئن غربت شمس تبدت من الشرق   ففي الغرب شمس لا تغيب من الشرق
لها بأبي الجعد الرفيع مطالع   تباري بها الشمس المنيرة بالأفق
هلموا إليها يا بني الحاج إنها   تدر بأمطارٍ غزار من الرِّزق
(المصدر السابق 212 ــ 213) .
(19) وقد صور محمد بن ابراهيم الزرهوني ، وهو ابن شيخ زاوية تاسفت ، محنة هذه الزاوية وتشرد أهلها في كتابه رحلة الوافد .

2) المدارس والمنابر العلمية

ومما ساعد على استمرار جهود الدلائيين وإثمارها أن المنابر العلمية في المدن ظلت تؤدي مهمتها نسبياً ، وكانت النفقات التي توفرها الأحباس ، على شحها ، وسوء سمعتها[20] ، تيسر التفرغ لطلب العلم أو التعليم . وقد أظهر الملك رشيد عناية بالعلم وأهله في المدة القصيرة جدا التي قضاها في الحكم ، فشرع في بناء مدرسة الشراطين أو المدرسة الرشيدية[21] ، كما يسميها أهل العصر ، سنة 1081هـ/ 1670م ، واستمر العمل فيها إلى سنة 1089هـ/ 1678م ومهما يكن الغرض من الفقرة التي نوردها من رسالة اليوسي إلى الملك إسماعيل تعريضياً فإنها تقرر واقعاً ، فقد عتب الملك على أبي علي إهمال الواجب العلمي بخروجه إلى البادية ، فرد اليوسي برسالة عنيفة كان مما جاء فيها : «... ثم جاء المولَى رشيد بن الشريف فأعلَى مناره[22] ، وأوضح نهاره ، وأكرم العلماء إكراماً لم يعهد ، وأعطاهم ما لا يُعد ، ولا سيما بمدينة فاس ، فضح من قبله ، وأتعب من بعده»[23] .

ويظهر أن الملك رشيد كان في بداية أمره ، وقبل أن يخلص له الملك ، في حاجة إلى دعم أهل فاس له فاسترضاهم ، وأغدق على خاصتهم العطايا ، وخلق لهم جوا من الرفه يضمن به ولاءهم وإخلاصهم قبل التوجه نحو الدلاء ومراكش ، ثم بلاد سوس ، وهذا ما يؤكده الإفراني في قوله : «ولما تمت له البيعة ، أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطايا ، وبسط جناح الشفقة على أهلها ، وأظهر

---

(20) مما جاء في هجاء الإفراني لعلماء مراكش قوله :

يرون العلم في حبس وشيب ... وذاك عليهم بالجهل يقضي

وهل في خطة الأحباس شيء ... سوَى غضب الإله وهتك عرض

(الدرر المرصعة 93 ، والاعلام للمراكشي 5/ 55) .

(21) تتكون هذه المدرسة من ثلاث طبقات ، ويفوق عدد حجرها المائة والعشرين ، يسكنها الطلبة . وفيها يقول أبو زيد عبد الرحمن الفاسي 1096هـ/ 1685م :

انظر لبهجة بيت الله يا رائي ... وسرح الجفن بين أرجاء

تخالها جنة تزهى مزخرفة ... بطيب الزهر من أنفاس قراء

وفي هذه المدرسة ألف الافراني المسلك السهل ، أو أنهَى تأليفه كما سيأتي .

(22) يقصد العلم .

(23) مخطوطة خ.ع. بالرباط 849ج ص 16 .

إحياء السنة ، ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الأرفع ، وفي أيامه كثر العلم ، وظهر للعلماء أبهة ورياسة ، واعتز العلم وأهله»[24] . على أن معاملته لعلماء الدلاء المنفيين إلى فاس لم تكن تخلو من شوائب التشفي والنكاية[25] .

أما الملك إسماعيل فأهم ما وفر للحياة العلمية هو الاستقرار ، على أنه لم يكف عن دعوة العلماء إلى (الاجتهاد) في طلب العلم والتعليم متهما إياهم بالجهل والتقاعس أحيانا[26] . وفي عهده بدأت مدينة مكناس التي أصبحت عاصمة الملك، تستقطب بعض الأساتذة أمثال أحمد بن يعقوب الوّلالي[27] المتوفي سنة 1128هـ/ 1715م ، وهو من نجباء تلاميذ الزاوية الدلائية ، قضَى بإحدَى مدارسها عدة سنوات أخذ خلالها عن اليوسي وأضرابه علوماً مختلفة من فقه وأصول ونحو ومنطق وبلاغة . وبعد سقوط الزاوية الدلائية استقر بمكناس مدرساً في القصبة السلطانية ، وله مؤلفات عديدة منها مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح[28] .

وممن تلمذ له من المشهورين أبو القاسم العميري صاحب الفهرسة الذي تولى قضاء مكناسة بعد أبيه ، وكذلك الشاعر الطبيب عبد القادر بن شقرون . وتصدَّى هذان التلميذان بدورهما للتدريس بهذه المدينة .

وبعد عودة محمد البوعصامي أبي عبد الله من الشرق متزودا بمعرفة موسيقية نظرية وتطبيقية حط الرحال بمكناسة واشتغل بالتدريس ، وهو من الأدباء البارعين في النحو ورواية الأشعار والأخبار[29] .

كما كانت مكناسة في هذا العصر قبلةً لعدد من شعراء المغرب والجزائر يفدون على الوزراء والكتاب أو على البلاط مباشرة ، كما سيأتي .

---

(24) نزهة الحادي 303 — 304 .

(25) من ذلك أنه أنشد يوما بمحضر محمد المرابط ، معرضا به ، قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرَى عـدواً لـه ما من صداقته بد

فتمالك المرابط كبرياءه ، وأجاب : «أيد الله الأمير ، إن من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا». نزهة الحادي 285— 286 .

(26) انظر نموذجا لذلك في المنزع اللطيف 101— 104 ، والاستقصاء 66/7 .

(27) ترجمته في التقاط الدرر 298/2 ، والزاوية الدلائية 123— 124 .

(28) انظر الصفحة 41 الحاشية 4 .

(29) الأنيس المطرب 168— 193 .

غير أن عدم اتجاه الدولة إلى بناء مؤسسات تعليمية جديدة، وجمع أغلب المؤسسات العمرانية بمكناس كان من أسباب الأفول مع موت الملك إسماعيل وعمد ابنه عبد الله إلى هدم مدينة الرياض وغيرها من مآثر مدينة مكناس[30] ، وانتقال عاصمة الملك إلى مراكش مع ابنه محمد الثالث .

3) أثر بعض أصحاب النفوذ من وزراء وحكام :

وفَّرت الدولة بتنظيمها الجديد عدداً من مناصب الكتاب والوزراء والقضاة ، برزت من بينهم نخبة من المهتمين بالثقافة والأدب ، وقد أسعفهم ما كان بين أيديهم من وسائل مادية ونفوذ ومكتبات ، فقدَّموا العون والتشجيع لأدباء كانوا بالأمس القريب زملاء لهم في مجالس الطلب بالقرويين وغيرها . كما أن بعض حكام الأقاليم من غير ذوي الشهرة العلمية قربوا إليهم عددا من الأدباء أو أكرموا وفادتهم .

من هؤلاء الوزير اليحمدي ، أبو العباس أحمد بن الحسن[31] ، ولد على رأس الستين بعد الألف ، وتوفي سنة 1132هـ/ درس بفاس واستوزره الملك إسماعيل بعد سنة 1090 ، وكان في أول أمره قيما على الخزانة السلطانية فاستفاد منها وأفاد أصدقاءه حتَّى قيل إنه «تَضَلَّع في كل فن بما بهر الألباب ، ولا سيما في علوم الآداب»[32] . وممن حظوا بعناية هذا الوزير ، الشاعرُ الناقد علي مصباح الزرويلي المتوفي سنة 1150هـ/ 1737م . فقد اختص في مدحه بقصائد عديدة ضمنها كتابه سنا المهتدي ، إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي ، وفي هذا الكتاب ترجمة وافية لليحمدي ، ورسائل من إنشائه ، ويسجل الزرويلي لقاءه بهذا الوزير قائلا : «جرت بيني وبينه معرفة في زمن الصبا ، وأول ذلك عام 1123هـ ، فامتدحته لما يذكر ، ومع ذلك فما مدحته إلا شاكراً لمعروفه السابق»[33] .

وربما كان هذا الميل إلى الثقافة والأدب وراء تعاطف اليحمدي مع محمد العالم

---

(30) الاستقصا 7/ 33 ـ 134 .

(31) ترجمته في سنا المهتدي ، وهو خاص به ، والإتحاف 109/4 ، والموسوعة المغربية 96/3 ، والمصادر المذكورة بها .

(32) الإتحاف 3/ 96

(33) سنا المهتدي 20 .

ودفاعه عنه ، ورد الشبهات التي أثارها خصومه عند أبيه[34] .

وبرغم السمعة السيئة التي كانت لأسرة الروسي حكام فاس لهذا العهد ، فإنا نجد الشعراء يتسابقون إلى التقرب من أبي علي الروسي حاكم فاس شعراً ونثراً ، وأكثرهم الحاحاً في ذلك الحاج محمد الشرقي[35] . ولمحمد بن الطيب العلمي فيه قصيدة على وزن قصيدة ابن الفكون القسنطيني الشهيرة[36] ورويها ، بل تستعير بعضَ ألفاظها وتراكيبها ، ومما جاء فيها[37] :

حـجـابُ الله والملكِ الـعَلِي على الـرُّوسي الرئيس أبي علي
وزيـر عـمَّـر الأقـطـار جوداً تـأملْ هـل تـرَى غير الغني !
لـه أصـبـحت راويـةَ الـقـوافي وما قد كنت أروي من روي
فأصبحَ فيه شعري لا يُضاهي وهـل يـنـقـاس إرشاد بـغـي

وفي ديوان ابن زاكور قصيدة يمدح فيها عبدَ الله الروسي ويستنصره على أحد خصومه[38] .

وفي شمال المملكة كانت للقائد أحمد بن علي الريفي الحمامي[39] عناية بالأدب وأهله تظهر من المكانة التي كانت للكتاب الملحقين بعمالته ، ومن الإكرام الذي يلاقيه الأدباء الوافدون عليه . ومن أشهر كتابه محمد بن سليمان تحدث عنه العلمي في الأنيس المطرب بقوله : «قرأ بفاس ، حتَّى تعطرت منه الأنفاس ، ومر عليه

(34) شكر محمد العالم للوزير اليحمدي هذه الالتفاتة في رسالة وجهها إليه جاء فيها : «فقد أحسنتَ أبا العباس ، ولم يتقدم لك منا إحسان ، وقمت في نصرتنا مقاماً لم يقم مَعك فيه إنسان .. فلا أنسَى لك يوم الفقهاء تنويهك بقدرنا ، وإعظامك لأمرنا» الإتحاف 80/4 .

(35) انظر الأنيس المطرب 98 ، 139 . ومما قال فيه مهنئا بالشفاء من المرض :
ألا حـمـداً لمولانـا الـعلي بـإبلال الـوزيـر أبي علي..
وله كذلك قصيدة من 18 بيتا في مدح المهدي الغزال وزير الملك إسماعيل (المصدر نفسه 162) .

(36) انظرها في المسلك السهل ص 225 – 226 .

(37) بقية القصيدة في الأنيس المطرب 97 .

(38) الروض الأريض 120 .

(39) الاستقصاء 115/7 ، 160/7 .

زمن لا يطير إلا وقع .. ثم اتصل بالوزراء بني حمامة فكلفوا به .. فطار في الآفاق ذكره ، وجرَى على الألسنة مدحه وشكره .. حتَّى زهت به تلك الدولة ، وغدت له فيها أي صولة ، فهو عينها والمسمع ، منه الآن تبصر وبه تسمع ، إلى سياسة وتدبير وهمة»[40]

ويعلق الناصري على مآثر هذه الأسرة التي ضاعت مع تقلب الولاء بعد موت الملك إسماعيل بقوله : «وقد خلف هذا الريفي آثاراً كثيرة بطنجة وتطاون وأعمالها ، من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته»[41] .

واشتهر بالشمال الشيخ علي بركة أستاذاً مدرسا[42] . بينما اشتهر بالكتابة إلى جانب محمد بن سليمان كاتب آخر هو محمد العربي أبريل ، وهو في نظر العلمي «إمام البلاغة الراتب»[43] .

وفي الشعر حَظِي الحاج علي مندوصة بتنويه معاصريه مثل ابن زاكور والعلمي[44] .

إن دراسةَ ارتباط المثقفين والأدباء في هذا العصر بهذه الجهة أو تلك يفيد في الكشف عن الملابسات التي ساعدت في انتعاش الأدب المغربي في هذه المرحلة ، وليس ذلك لكون الأدباء مرتبطين عملياً بإحدَى الجهات ، ولكن لأسباب تتعلق بمعطيات العصر والظروف التي نشأت فيها الدولة العلوية والإجراءات التي اتخذتها . وكل ذلك لم يكن يترك مجالاً دون الاختيار عن وعي أو غير وعي .

---

(40) الأنيس المطرب 204 ـ 205 .
وقد دارت بين العلمي وابن سليمان مساجلات وروايات أخبار أثناء رحلة العلمي إلى الشمال (المصدر السابق) .

(41) الاستقصاء 160/7 . ويقصد أبا العباس أحمد بن علي الريفي .

(42) تردد ذكره في الأنيس المطرب أثناء الحديث عن زيارة العلمي للشمال ، وقال فيه القادري : «درس العلم ببلده بتطوان ، فأجاد وأفاد ، وكان له صيت شهير ، وله شرح على الجرومية ممتع» . التقاط الدرر 290/2 .

(43) الأنيس المطرب 204 ـ 205 .

(44) ترجم له في الأنيس المطرب 342 ـ 346 .

4) أثر المعارضة والثوار

كان لمعارضي الدولة الإسماعيلية والثائرين عليها أثر في تنشيط الحركة العلمية والأدبية . ونحن لا ننوي هنا تفصيل الحديث عن الأدب الذي نشأ عن هذه المعارضة سواء ما يتعلق منه برسائل اليوسي وعبد السلام كَسوس وشعر علي مصباح وشعر محمد التفنگلتي وغيرهم ، وهو مما يكون في مجموعه موضوعاً مستقلاً شيقا ، وإنما نكتفي هنا بإبراز الأثر الذي كان لمحمد العالم سواء حين كان طالباً بفاس أو حين أصبح ثائراً بتارودانت ومراكش ، ففي هذه المدن الثلاث تجمهر حولهُ عدد من الفقهاء والأدباء والشعراء ، ولم يعدم له نصيراً ومدافعاً في بلاط أبيه .

لقب محمد بن إسماعيل[45] المتوفي سنة 1118هـ/ 1706م بالعالم لنباهته ومشاركته العلمية . درس على أكابر علماء عصره بفاس ، وكانت المجالس التي يحضرها تغص «بجهابذة أيقاظ ، من علماء فاس وغيرهم من الأئمة والحفاظ»[46] . وقد تخرجُ القضايا المثارةُ في حضرته من مجال التدريس إلى مجال الحوار الواسع بين علماء المدينة[47] . وعندما ولاهُ أبوه حكم منطقة الجنوب استصحبَ معه من فاس إلى تارودانت ، من جملة من استصحب ، أستاذه محمد بن أحمد المسناوي ، كما استقطب عدداً من أدباء مراكش وسوس وعلمائها . ولقي الحظوة عنده ثلاثة منهم ، وهم إبراهيم السكتاني ، وابن الحسن الإيلاني ، وابن عبد الله الزدوتي . وكانت له مجالس أدبية يحاور فيها الأدباء — وهو واحد منهم — ويساجلهم ، جُمع بعض ما دارَ فيها في كتاب بعنوان : نفحات الشباب[48] .

---

(45) ترجمته في رحلة الوافد 162 والتقاط الدرر 284/2 وسوس العالمة 65 والإعلام للمراكشي 12/5— 18 ، والإتحاف 78/3— 79 ، 61/4— 84 .

(46) تقديم ملاذ الطلب 160 ، مخ.خ.ع 88ج ضمن مجموع .

(47) من ذلك إثارة مسألة علم الرسول بالغيب بمجلس البخاري بالجامع الكبير بفاس الجديدة ، بين يدي محمد العالم ، فاختلف العلماء في ذلك «وشاع ذلك بفاس ، فمن مجوز ومانع ، فكتب أبو العباس الحلبي في ذلك لأبي مروان التجموعتي فأجابه» برسالة عنوانها : ملاذ الطلب في جواب أستاذ حلب . (ملاذ الطلب 160) . ونشير ، من الآن ، إلى أن هذين العالمين من أساتذة الإفراني .

(48) سوس العالمة 65 .

وبلغ من شهرة محمد العالم أن نعته أحدُ معاصريه بِـ«أمير السوس» : مقابل «أمير الغرب» أي الملك إسماعيل[49] . ويصف الزرهوني مَشهد دفن محمد العالم ، وكان الزرهوني إذ ذاك طالباً بصحبة الإفراني ، بالمدرسة الرشيدية بفاس (1118هـ/1706م) فيقول : «وخرج لجنازته عدد عظيم من أعيان علماء فاس ، ومن بينهم القاضي الكبير سيدي عبد القادر بُردلة ، والإمام سيدي عبد السلام كَسوس وآخرون ، وبسبب ذلك لم تُلقَ دروس بالقرويين ذلك اليوم»[50] . وامتحن بسببه عدد من العلماء وتعقب أنصاره فمن قتيل ومشرد[51] . وقد صور الأدبُ هذه المحنة كما مر في نهاية الحديث عن مأساة مدينة مراكش .

وامتاز أدبُ المعارضة بالصدق والمعاناة الحقيقية ، وهذا ما يعطيه قيمة خاصة .

5) الاتصال بالشرق والمغرب العربي

ظل التواصل بين الشرق والمغرب العربي وبين المغرب من المؤثرات في الثقافة المغربية سلباً أو إيجابا ، فبرغم العلاقة غير الودية التي كانت قائمة بين الأتراك في الجزائر والدولة المغربية الفتية فإن عدداً من المغاربة شدوا الرحال إلى الشرق ، سيما في مواسم الحج . وعلى رأسهم أبو سالم العياشي[52] ، وعدد من رجال الزاوية الناصرية[53] ، واشتهر محمد بن سليمان الروداني بإقامته الطويلة في الشرق وتأليف

---

(49) الزرهوني ، رحلة الوافد 194 .

(50) المصدر السابق 154 ، وقصة ثورة محمد العالم وهجومه على مراكش ، ثم محاصرته بتارودانت وقتله بمكناس مشهورة . (انظر مصادر ترجمته السابقة) .

(51) المصدر السابق 194 . انظر الصفحة 9 – 10 من هذه المقدمة .

(52) هو عبد الله بن محمد العياشي المتوفي سنة 1090هـ . أحد رجال الزاوية العياشية . تنقل بين القاهرة والقدس وغيرهما من الأمصار الشرقية ، وجاور الحرمين وأخذ عن عدد من علماء الشرق مثل الشيخ علي الأجهوري المتوفي سنة 1066هـ ، وله عدة مؤلفات أهمها رحلته المسماة : ماء الموائد ، وهي تجمع مادة متنوعة من الشريعة والتصوف والأدب والأخبار المتعلقة بالمغرب وبلاد إسلامية أخرى . وهو شاعر مطبوع ذو نزعة صوفية . (التقاط الدرر 204/1 ، ومؤرخو الشرفاء 184 – 185 ، والحياة الأدبية 90 – 101) .

(53) نذكر منهم أحمد بن محمد بناصر المتوفي سنة 1129هـ ، ترأس زاوية تمكروت بعد والده ، وله ثلاث رحلات إلى الشرق ، أنشأ خلالها فروعا للزاوية الناصرية ، وألف

الكتب الفقهية وتولي الإفتاء بالحرمين من سنة 1082هـ إلى سنة 1093هـ[54] . وكان المقري ، من الجيل السابق ، قد ألف كتابه الضخم نفح الطيب بالمشرق بطلب من أهل دمشق[55] . وللمغاربة رواق بالأزهر يقيم فيه الطلبة عددا من السنين .

ومن معاصري الإفراني وأبناء جيله الذين كسبوا سمعة علمية أو أدبية برحلتهم إلى الشرق محمد البوعصامي الذي شهد له علماء القاهرة بالتفوق في الموسيقَى ، ثم عاد إلى مكناس واشتغل بالتدريس[56] ، وهو الذي أمد كلاً من العلمي والإفراني بمادة موسيقية أثبتاها في كتابيهما الأنيس المطرب والمسلك السهل . وممن «رحل إلى البلاد المشرقية .. ودخل الجامع الأزهر .. ثم كر راجعاً إلى المغرب فتصدَّى للإقراء»[57] ، «الشاعر المفلق» الحاج علي مندوصة أبو الحسن . ومما له دلالة خاصة أن الأديب الموهوب محمد بن الطيب العلمي توفي شابا بالقاهرة سنة 1135[58] .

ولأستاذ الإفراني محمد بن عبد الرحمان الفاسي رحلة إلى الشرق أخذ فيها إجازة عن عدد وافر من المشارقة[59] . ويظهر أن الرحلة إلى الشرق لأداء فريضة الحج والاتصال بعلماء الوقت كانت أمنية كل عالم أو أديب مغربي ، ولذلك نستغرب ألاّ يتمكن الإفراني من تحقيق هذه الأمنية .

وقصد المغرب أدباء من المشرق والمغرب العربي فساهموا في الحركة الأدبية ، ومن أشهرهم الشاعر الصوفي أستاذ الإفراني أحمد بن عبد الحي الحلبي وذلك بما كتبه من أشعار ومقامات[60] .

رحلة شبيهة برحلة العياشي الآنف الذكر . (صفوة ما انتشر 221 . الطبعة الفاسية . والتقاط الدرر 299 ومؤرخو الشرفاء 206 ـ 207) .

(54) محمد بن سليمان الروداني المتوفي سنة 1094هـ بدمشق . كان متفننا في علوم شتَّى يدوية وذهنية . رحل إلى الشرق فكسب شهرة كبيرة . (صفوة ما انتشر 196 ـ 198 الطبعة الفاسية ، التقاط الدرر 220/1 ، والحياة الأدبية 106 ـ 113) .

(55) انظر مقدمة المؤلف لنفح الطيب .

(56) الأنيس المطرب 168 ـ 193

(57) المصدر السابق 242 .

(58) ترجمته في الصفحة 37 .

(59) ترجمته في الفصل الثاني

(60) ترجمته في الفصل الثاني

وكانت القضايا الفكرية أو الدينية التي تثار في الشرق تلقَى صدى لها في المغرب [61] .

وعندما آل حكم المغرب إلى محمد الثالث توثقت العلاقة بين المغرب والمشرق وذلك لاعتماده على الدين أساسا لبناء الدولة ، فنراه يعرض برنامجه لإصلاح القضاء على علماء المشرق طالباً منهم إبداء الرأي [62] .

وهناك قرائن كثيرة تشير إلى استمرار التفاعل الثقافي بين دول المغرب العربي سيما بين المغرب والجزائر ، فيذكر الإفراني أن أحد طلبة الجزائر قصد الملك رشيد «ومدحه بالبيتين التاليين [63] :

فاض بحرُ الفرات في كل قطر ... من ندا راحتيك عذباً فراتا
غرف الناس فيه والتمس الفقر ... خلاصا فلم يجده فماتا

وربما كان هذان البيتان للشاعر الزجال أبي عثمان سعيد التلمساني الذي وفد على ملوك الدولة العلوية ونظم قصائد كثيرة في مدح الملك إسماعيل ، فحصلت جفوة بينه وبين أدباء المغرب ، ذلك «أنه لما قدم المغرب الأقصَى ولقي الإكرام من المولى الرشيد .. حسده شعراء المغرب وعابوا عليه شعره قائلين إن موازين أشعار المغرب الأوسط يقدر على الاتيان بمثلها صبياننا ، لأن غالبها يتمشَّى على حرفين . فلو ارتكبتم ما نرتكب من التفنن لما وجدتم معنًى أصلا ، فعندنا من ينظم الرباعي والخماسي حتَّى العشاري ، فلما رأَى الشيخ سعيد ، رحمه الله من شعراء المغرب ذلك الإنكار ذهب من فوره ، وقال قصيدة بليغة لا من السداسي ولا من السباعي ، بل من الثنائي عشر ، وأتَى بها إليهم فعلموا حينئذ أنه بحر لا يطاق ولا يقاس ، وسلموا له» [64] .

---

(61) من ذلك ما أثارته آراء أبي إسحاق إبراهيم بن حسن الكوراني في كتابه : مسلك السداد في مسألة خلق أفعال العباد ، وثلاث رسائل أخرى في الموضوع نفسه ، فقد رد عليه كل من عبد القادر الفاسي ، والحسن اليوسي ، ومحمد المسناوي ، والمهدي الفاسي ، ومحمد بن أحمد القسنطيني «وأجمع مشايخ فاس على الرد عليه ، إلا أن منهم من اقتصر على بيان الحق بتلطف ، ومنهم من شنع عليه» . التقاط الدرر 246 — 247 .

(62) الإتحاف 188/3 ، والاستقصاء 31/8 — 34 ، 38 ، 60 وغيرها .

(63) نزهة الحادي 303 — 304 .

(64) من كشف القناع عن آلات السماع لأبي علي بن محمد الجزائري . (عن كتاب القصيدة 605 للدكتور عباس الجراري) .

ومن الشعراء الجزائريين الوافدين على المغرب بعد استقرار الدولة العلوية أحمد التريكي تلميذ سعيد المنداسي ، «وقد نفته دولة الأتراك من قطر الجزائر سنة ثلاث وثمانين وألف فذهب إلى المغرب الأقصَى ، وآوى إلى جبل بني زناتن ، قبيلة من قبائل المغرب قريبة من وجدة ، فمكث هناك أياما ، نظم هناك قصائد كثيرة يصف فيها حال بُعده عن أهله وعشيرته وأوطانه»(65) .

ومن المغاربة الذين قصدوا الجزائر وأخذوا عن علمائها الشاعر محمد بن زاكور(66) .

6) إحياء التراث الأندلسي

من روافد ثقافة هذا العصر وأدبه الاشتغال بالتراث الأندلسي بما فيه من تاريخ وشعر وأخبار .. وقد برز الاهتمام بالموشحات خاصة في هذا المجال . على أنه لا يمكن التحدث عن الصلة بالتراث الأندلسي باعتباره مؤثرا في الأدب في هذا العصر ، فقد امتزج ما هو أندلسي وما هو مغربي منذ عصر المرابطين والموحدين حتَّى أصبح هذا الامتزاج عضويا في عهد بني مرين على ما يمكن أن نلمسه في إنتاج أدباء العصر المريني مثل ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهما ، فلم يعد التميز بين العدوتين يعدو المفهوم الجغرافي . غير أنه بعد العمل الضخم الذي قام به الأديب المغربي أحمد المقري في تجميع الثقافة الأندلسية المغربية في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض لا نكاد نجد اهتماما بالأدب الأندلسي حتَّى نهاية القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر الهجري حين أخذ ابن زاكور وابن المسناوي والعلمي والأفراني يعنون بهذا الأدب ، فأعادوا ربط الصلة بذلك التراث الذي أصبح من أهم مصادرهم الثقافية ، فنظموا عددا وافرا من الموشحات ، وسنعرض لهذا الأمر عند الحديث عن ظروف تأليف المسلك السهل الذي يعتبر في حد ذاته عملا جريئا وربما فريدا في تصوير الامتزاج الثقافي بين المغرب والأندلس ، ويضاهيه في ذلك شرح ابن زاكور لكتاب قلائد العقيان ، وكانت لهذا الكتاب شهرة فائقة في هذا العصر(67) .

---

(65) القصيدة 608 .

(66) ترجمته في الصفحة 37 وسنتحدث عن التأثير الثقافي عن طريق الكتب وانتقال المفاهيم حين تحليل مضمون المسلك السهل .

(67) انظر أثر الثقافة الأندلسية بما فيها من موسيقَى وموشحات في الصفحة 47 وما بعدها من هذه المقدمة .

2 – الطابع الثقافي للعصر

سيكون من العبث البحث في هذا العصر، وفي إطار العمل الذي نحن بصدده، عن ثقافة عقلية أو فلسفية أو علمية تجريبية. ولن يغير من الأمر شيئا أن يكون ابن سليمان الرُّوداني، وهو من الجيل الأول يمارس بعض المهارات اليدوية والفلك، أو أن يكون عبد الوهاب أدراق وابن شقرون يمارسان التطبيب ونظم الأراجيز في منافع المأكولات، أو أن يكون محمد العطار قد انفرد في عصره بفهم أرجوزة ابن سينا، أو أن يكون الافراني قد أثار قضية الروح والجسد في كتاب المسلك السهل، فإن الأمر على ندرته لا يعدو نقلَ ما خلفه القدماء وتقليده. ولذلك نوجه حديثنا إلى الثقافة السائدة وهي الثقافة الدينية، ففي إطارها يمكن تحديد الاتجاه الفكري للمؤلف، ثم ننتقل إلى الحديث عن الأدب والثقافة الأدبية التي يعتبر المسلك السهل ثمرة من ثمراتها.

أولا: الثقافة الدينية

الثقافة السائدة في هذا العصر هي الثقافة الدينية، وينضوي تحتها كل ما يتعلق بالتشريع والاعتقاد والسلوك الديني أو المحسوب على الدين.

ولا يهمنا، الآن أو فيما بعد، تقويم هذه الثقافة إلا في علاقتها بالأدب وأثرها في المستوَى الفكري والسلوكي للناس. ونحن نلتمس ذلك في الاتجاهين الأساسيين لهذه الثقافة وهما: الاتجاه الفقهي، والاتجاه الصوفي.

الاتجـاه الفقهـي:

اشتغل الفقهاء المغاربة في هذا العصر، شأنهم في الذي سبقه[68]، بفروع الفقه في إطار المذهب المالكي يدرُسون كتب الفروع ويدرِّسونها، ويروونها بالسند المتصل إلى أصحابها، ما أمكنهم ذلك، وهي عبارة عن مختصرات وشروح ومنظومات أغلبها لمؤلفين من العصور الإسلامية المتأخرة كلامية ابن الزقاق (912هـ)، والمرشد المعين (1041هـ)، والشرح الكبير على مختصر خليل للخرشي

---

(68) بالمقارنة بالكتب المدروسة في العصر السعدي نلاحظ استمرار الثقافة الدينية. (انظر د. محمد حجي. الحركة الفكرية 173).

(1101هـ) ، إلى جانب بعض كتب التفسير والحديث القديمة مثل صحيح البخاري ، وصحيح مسلم وموطأ مالك[69] .

وبرغم طغيان المفاهيم الفقهية على الجميع يمكن تصنيف فقهاء العصر في فئتين :

الفئة الأولى فقهاء محافظون غلب عليهم الاهتمام بالتقسيمات والتفريعات الفقهية يشرحون ويحشون وينظمون متمسكين بآراء الفقهاء المتأخرين ، وتتسع هذه الحلقة لتشمل بعض أصحاب الكراسي العلمية بالقرويين وغيرها من مساجد فاس ومراكش ، بالإضافة إلى أكثر فقهاء البادية ، ويحتل هؤلاء الفقهاء في الغالب وظائف دينية واجتماعية صغيرة كالاشتغال بالشهادة والإمامة بالمساجد ، وكانوا يحظون في فاس بدعم الفئة الدينية المحافظة المتمركزة في الغالب حول الزوايا ، والمستعدة للتألب ضد كل من يهدد نفوذها الديني أو الدنيوي . وقد ضيقوا الخناق على الحسن اليوسي فاضطر إلى مغادرة كرسي الاستاذية بفاس والخروج إلى البادية . وبما أن الحوار والمنافسة العلمية غير متيسرين لهؤلاء الفقهاء فإنهم يلجؤون إلى التضييق على من يخالفهم بسد أبواب الرزق وتأليب الحكام . وفي رسالة اليوسي إلى الملك إسماعيل تصوير للعسر المادي الذي عاشه إبان التدريس بفاس[70] . وربما كانت الحال في مراكش أسوأ ، فبعد حوالي نصف قرن من خروج اليوسي من فاس ، ثار فقهاء مراكش ضد الافراني ، وبرغم دعوته إياهم للحوار فإن ذلك لم يجد نفعا ، فعاش أزمة اقتصادية خانقة[71] .

---

(69) من الكتب المفيدة في تحديد ثقافة العصر الفقهية والصوفية : المنح البادية لمحمد بن عبد الرحمن القادري أستاذ الإفراني . وفي التقاط الدرر 423/2 — 429 لائحة بالكتب التي درسها محمد بن الطيب القادري ، وأخرى للتي درسها لتلاميذه . ومن جهة أخرى بلغ عدد الكتب التي ورد ذكرها في هذا الكتاب 502 ، 279 منها ، كتب دينية . (انظر مقدمة المحقق 89) .

(70) مخطوطة خ.ع 849 جـ ص

وقد لاحظ اليوسي ازورار جماعة من طلبة العلم بفاس عن مجلسه «وكأنهم غلبهم ما هو مألوف من الطبع الآدمي في أمثالهم» ، وكان مما قال في هذه الظروف :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمي، ولا عرفوا جلالة منزلي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيب

(المحاضرات 87 ، 88) .

(71) انظر حياة الإفراني في هذه المقدمة .

ومؤلفات هؤلاء الفقهاء تنطلق دائما من مادة جاهزة لتنظمها أو تشرحها أو تحشيها كما سلف[72].

وهناك عدد من الفتاوي التي تدل على مدَى ابتعاد بعض الفقهاء من الحياة الاجتماعية من جهة ، وعن الروح الإسلامية ومقاصد الشريعة من جهة أخرى.

ويفهم من كلام للإفراني في صفوة ما انتشر أن هناك فقهاء أو «قوماً» حسب تعبيره لا يهتمون بالجانب الروحي والتصوفي ، وهذه عبارته : «.. قوم بينهم وبين العلم أوجه المنافاة ، ويعدون ما فيه من نمط الخرافات ، وقد ابتلينا بأقوام أبيضت لحاهم ، واسودت قلوبهم ، وتقدمت ألسنتهم ، وتأخرت عقولهم ، وغروا العامة بظاهرهم المموه ، ولم يطلعوا على باطنهم المشوه ، فتصرفوا في دين الله بمحض الجهل ، وتعاطوا من العلم ما ليسوا له بأهل ، وما أكثر هؤلاء في زمننا هذا»[74]. وسنورد فيما يأتي الخلاف الذي وقع بين اليوسي وفقهاء سجلماسة.

والفئة الثانية فقهاء متفتحون ذووا ميول صوفية كاليوسي وابن المسناوي وتلاميذهم ومريديهم ، من أمثال الإفراني. ومن هذه الفئة فقهاء كسبوا شهرة كبيرة لتضحيتهم في سبيل آرائهم كعبد السلام جسوس ، أعادوا بذلك الثقة إلى فقهاء عصرهم في وجود مثال الفقيه المستقل عن الدولة المستعد للاستشهاد في سبيل «الحق» ، ومنهم فقهاء اندمجوا في جهاز الدولة وظلوا مع ذلك يحتفظون بمستوَى من الإخلاص لمركزهم الديني ، فإذا تحاشوا رأس السلطة صبوا غضبهم ونقمتهم على الأوضاع عامة ، أو على المسؤولين الأدنين ، ومنهم قاضي الحضرة الإسماعيلية الحسن ابن رحال المعداني[75]. وفي رسالة اليوسي إلى الملك إسماعيل نجدُه ينصح له باستشارة اثنين من العلماء ممن بحضرته : «وليسأل من معه من الفقهاء الثقاة كسيدي محمد بن الحسن[76] ، وسيدي أحمد بن سعيد[77] ، وغيرهما من العلماء العاملين

---

(72) أورد الشيخ عبد الله كَنون في كتابه النبوغ لائحة واسعة لهذه الكتب (النبوغ 311 ـ 313).

(73) أي في كتاب صفوة ما انتشر.

(74) مقدمة المصدر السابق.

(75) انظر الصفحة 75 من هذه المقدمة.

(76) المقصود محمد بن الحسن المجاصي (1103هـ / 1691م)، قال عنه في التقاط الدرر 252/2 : «كان من أهل التحري والتثبت في قضاياه.. وكان مجلس درسه حفيلا بمسجد القرويين».

الذين يتقون الله ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره ، فعله ، وما نهوه عنه انتهى»[78] . ويقول محمد القادري : إن قاضي مكناسة وتلميذَ الحسن اليوسي ، سعيد بن أبي القاسم العميري «كان يشاورُه السلطان في أموره المهمة ، فكان يواجهه بصريح الحق ولا يحيد عنه ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وربما خاطبه بأمر يخاف منه هلاكه»[79] . وقسم الملك إسماعيل نفسه علماء الوقت إلى أربعة أقسام : «قسم يخاف من الله ولا يخاف منا ، يعني نفسه . وقسم يخاف من الله ومنا ، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله ، وقسم لا يخاف من الله ولا منا ، ومثل للقسم الأول بالإمام اليوسي»[80] .

ولا يظهر تميز هذه الفئة من الفقهاء في موقفها الانتقادي من الأوضاع العامة التي لا ترضي مطامحها فحسب ، بل يظهر كذلك في ميلها إلى التيسير والتفتح في الدين ، وتغليب الجانب الروحي منه . وأحسن ما يوضح هذا الاتجاه ما وقع بين الشيخ اليوسي وبين فقهاء سجلماسة الذين تمسكوا بالمغالاة في تقرير العقائد للعوام «فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررونه فهو كافر ، وشاع عندهم أن من لم يعرف : لا إله إلا الله ، أي النفي والإثبات على التقرير الذي يقرره العلماء فهو كافر»[81] . وحينما هرع العوام إلى الشيخ اليوسي أثناء مروره بسجلماسة أبان لهم أن الإيمان يتم بالاعتقاد بمضمون الآية ، بقطع النظر عن لغتها العربية وتركيبها ، إذ «العقائد كلها المطلوب اعتقادها بالمعنَى ، ولا يشترط فهم ألفاظها التي عبر عنها في كتب العلماء ، ولا إدراك حدودها ورسومها التي تعرف بها ، فإن فهم هذه العبارات ، والإحاطة بهذه الحقائق والتقريرات ، علم آخر لم يكلف به العوام»[82] .

---

(77) هو أحمد بن سعيد المجلدي (ت 1094هـ) قال عنه في التقاط الدرر 217/1 : «محمود السيرة في ولاية القضاء» .

(78) الاستقصاء 86/7 .

(79) التقاط الدرر 300/2 .

(80) المحاضرات 92 .

(81) المصدر السابق 93 .

(82) المصدر السابق 92 .

وبلغ من التعقيد الديني عند فقهاء سجلماسة هؤلاء ، أن كانوا يحرمون أكل ذبيحة من لا يحسن علم التوحيد ، يقول اليوسي : «وكان أهل البلد أتبعوني في الطريق سؤالا فيما مر من حكم الذبائح ونحوها في بطاقة ، فأجبتهم بما علم من دين الإسلام ، أن كل من تشهَّد شهادة الحق ، فإنه تؤكل ذبيحته وتحل مناكحته ، ويدفن في مقابر المسلمين ، ما لم يظهر منه ما يخالف ظاهره ونحو هذا الكلام ، فلما بلغ إلى أولائك قالوا : سبحان الله ! كنا نعرف فلانا من العلماء ، ثم هو يقتصر على مثل هذا الكلام ويكتفي به ، فلم يقع كلامي منهم ، حيث اقتصرت على الحاجة وما هو الحق ، ولم أتعدَّ إلى ما يشتغلون به من الفضول والضلال»[83] .

وفي هذا الإطار يدخل تأليف الإفراني لكتابه فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث ، وكذا تأليف اليوسي : رسالة فيمن لا يحسن النحو والصرف .

ومؤلفات أغلب الفقهاء المتأثرين باليوسي هي عموما عبارة عن رسائل وتقييدات تتعلق بأحداث يطرحها الواقع الديني والحياتي للناس ، ومن ذلك مؤلفات محمد المسناوي الفقهية : جواب عما يقع في المسغبة من كثرة السؤال . القول الكاشف عن أحكام الاستنابة في الوظائف . نصرة القبض في الرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض . صرف الهمة إلى تحقيق معنَى الذمة .

وكانت الإجازة قد فقدت كل دلالاتها العلمية وأصبحت زينة وتبركا ، يقتنيها الناس بشتَّى الطرق والوسائل ؛ ولذلك نجد محمدا المسناوي يزهد فيها ، مبينا المذهب الذي سار عليه الشيخ اليوسي بقوله : «وأما شيخنا اليوسي فلم يكن له كثير اعتناء بالرواية ، وإنما الغالب عليه الدراية .. وأما ما يفعله أهل الوقت من التساهل في ذلك ، باعتبار المجيز والمجاز فلا أراه ولا أقول به ، وهو عندي من العبث الذي لا جدوَى منه إلا مجرد التمويه على الجهلة والتلبيس على الأغبياء ، المعلوم له حكمه شرعا»[84] .

وهذه الفئة من العلماء توسع مجال مطالعاتها ، ليشمل التاريخ الإسلامي عامة ، والأندلسي خاصة ، والأدب والبلاغة وغيرها . ولذلك نجد أن أغلب هؤلاء الفقهاء

(83) المصدر السابق 94 .

(84) إجازة المسناوي لأحد تلاميذه ، مخطوطة المكتبة العامة بتطوان ، رقم 536ص 267 ـ 268 ضمن مجموع .

هم في نفس الوقت أكابر أدباء العصر ، وأن الأدباء الخلص هم تلاميذ هؤلاء ومريدوهم كما سنرى حين الحديث عن الأدب .

الاتجاه الصوفي

شاع التصوف في هذا العصر فعم المدن والبادية ، وبذلك يعتبر الاتجاه الثاني للثقافة السائدة . ونحن نستعمل كلمة تصوف بتجاوز كبير ، إذ نرانا مضطرين لأن نحشر في عباءتها كل مظاهر السلوك والاعتقاد المستند ـ مباشرة ، أو عبر تقاليد اجتماعية وتعقيدات نفسية ، عن وعي أو غير وعي ـ إلى الايمان بالغيب . ثم لا ندعي وجود حدود فاصلة بين هذا الاتجاه وبين الاتجاه الفقهي ، لأن كثيراً من رجال الفقه كانوا رجالَ تصوف أو زعماءه في الوقت نفسه . وكانت الزوايا التي احتفظت بكيانها في هذا العصر ، وأهمها الناصرية والشرقاوية والفاسية ، قد اكتفت أمام صرامة المراقبة المخزنية باستقطاب المريدين ، وتوزيع الأوراد وإقامة الأذكار[85] ، إلى جانب الاهتمام بالحفاظ على مواردها المادية وتنميتها .

وعندما يستعرض المرء نماذج السلوك والممارسة الصوفية في هذا العصر كما تقدمها كتب التراجم والمناقب والفهارس يجد نفسه أمام سلم كثير الدرجات يبتدئ ، في أسفله ، بالبهاليل والمجاذيب والحالمين والمحتالين[86] من ذوي الحركة الاضطرارية وممن يرفع عنهم التكليف ، وينتهي في أعلاهُ بالفقهاء والعلماء والزهاد الذين يكونون العمود الفقري للاتجاه الفقهي المتفتح ، وإلى جانبهم شعراء ذووا نزعة صوفية أمثال أحمد بن عبد الحي الحلبي ، ومحمد الطيب المريني ، وكان بين هذين الاتجاهين صراع يعتبر الحسن اليوسي أحسنَ من يبلوره .

وبين هذين القطبين ، في الوسط ، تكوِّن الزوايا وأصحابُها صلة .وصل ، فتتعامل في غالب الأحيان مع الطرفين ، وتمارس الاتجاهين مع فارق ملحوظ بين

---

(85) للاطلاع على مدَى كثرة الزوايا وهامشيتها في هذا العصر انظر جدولاً مستخرجا من التقاط الدرر في مقدمة المحقق ، ص 84 ــ 86 ، وقد أحصَى فيه المحقق 73 شيخ تصوف .

(86) انظر قصة اللوطي الذي خدع أهل هسكورة في كتاب المحاضرات 46 . قال اليوسي في التعقيب على قصته : «ومثله كثير» وكذا قصة اليهودي الذي تنكر وخدع الناس بإيهامهم بالقدرة على تبليغهم مكة في طرفة عين .

زاوية وزاوية ، وبين شيخ وشيخ . غير أن الطابع الغالب على الزوايا في عهد المركزية الإسلامية هو الميل إلى الحفاظ على مصالحها المادية والمعنوية ، وشد الجمهور إليها بادعاء الكرامات والاطلاع على الغيب ، إذ أصبح النوم وغفوات اليقظة مجالاً واسعا للكشف[87] ، وهذا ما يمكن عمله أمام استحالة الجهاد المرابطي .

ولم يكن ما آل إليه حال الفقه والتصوف من تعقيد وتخلف خاصا بالمغرب ، فالحالة قد شملت العالم الاسلامي كله ، فاقتضى الأمر ظهور حركة إصلاحية سلفية تدعو إلى الرجوع إلى ما كان عليه (السلف الصالح) . وكان الاتجاه المتفتح الذي يتزعمه اليوسي أكثر تمسكا بالسنة ، وأقرب إلى فهم مقاصد الشرع من الاتجاه الفقهي المحافظ برغم ميوله الصوفية . ولذلك نرَى أن اليوسي ومن مشَى في طريقه بداية لحركة سلفية قبل العصر الحديث ، وقبل الدعوة الوهابية . غير أن هذه الشرارة سرعان ما خبت وأوغل الفكر الديني في جموده وتخلفه إلى أوائل القرن العشرين حين هبت رياح السلفية من الشرق .

والذي يهمنا ابرازه هنا هو أن الاتجاه الديني المتزمت مارس ارهابا ضد العلوم والأدب حتَّى صار الأديب والمؤرخ في حاجة إلى تبرئة ذمتيهما والبرهنة على حسن الطوية كلما تصديا للتأليف في الأدب والتاريخ[88] ، أما العلوم العقلية فقد أفل نجمها قبل هذا العصر ، فلا نستغرب إذا وجدنا الإفراني يبدأ كتابه المسلك السهل بالدفاع عن الأدب ويلح خلال الكتاب على ضرورة التسامح مع المفاهيم الأدبية سواء ما يتعلق منها بالموضوعات كالغزل والرثاء ، أو بالشكل كالمجاز والاقتباس مما نتطرق له عند الحديث عن الإطار التاريخي والفني للموشح .

ثانيا : الثقافة الأدبية :

جيلان من الأدباء .

يجدر بنا أن نميز في هذا العصر بين جيلين ساهما معا في انتعاش الأدب والثقافة

---

(87) للاطلاع على بعض الأمثلة يمكن الرجوع إلى كتاب الروض اليانع الفائح ، والدرر المرصعة ، والعقود الوسطَى ، عدا الكتب الخاصة برجال الزاوية الفاسية .

(88) انظر مقدمة المسلك السهل ، ومقدمة نزهة الحادي ، ومقدمة ديوان ابن زاكور ، ومقدمة واسطة العقدين ، ومقدمة سنا المهتدي لعلي مصباح ، ومؤرخو الشرفاء 39 .

الأدبية مساهمة متميزة تدل على تطور في اتجاه الأدب الخالص. ويتكون الجيل الأول من مجموعة من الشيوخ مثل الحسن اليوسي ومحمد بن أحمد المسناوي وأحمد بن عبد الحي الحلبي(89). وكثيراً ما تردد ذكر اليوسي وابن المسناوي كأستاذين بينما كان تأثير ابن عبد الحي الحلبي راجعاً إلى شعره الصوفي ونثره. ويتكون الجيل الثاني من الأدباء الشبان الذين غلب عليهم الأدب أو التاريخ، فاشتهروا به مثل ابن زاكور والعلمي وعلي مصباح الزرويلي والإفراني وعددٍ وافر من الشعراء المغمورين مثل محمد الشرقي وعلي مندوصة ومحمد التفنكَلتي وغيرهم.

ويتميز الجيل الأول باتساع ثقافته الدينية وميله إلى التصوف، إلى جانب الثقافة الأدبية. وكان ابن المسناوي أقربهم إلى هموم الشباب يناشدهم الأشعار ويساعدهم على حل معضلات الشعر. والواقع أن مؤلفات اليوسي، وخصوصا كتاب المحاضرات، وديوانه الشعري بالإضافة إلى ديوان الحلبي ومقاماته التصوفية المبنية فنيا على نمط مقامات الحريري، وكذلك مقامة ابن المسناوي وشعره، تمثل بداية نهضة أدبيةٍ ساهم فيها العنصر المشرقي والمغربي والأندلسي. أما الجيل الثاني، جيل الشباب، فنلاحظ اتجاهه نحو تغليب الاهتمام بالأدب والتاريخ على الاشتغال بالتأليف الفقهي أو الانغماس في السلوك الصوفي وخصوصا في مرحلة الشباب. وإذا كان ابن زاكور قد أدلَى بدلوه، وضرب بسهم صائب مع الجيلين، فبرع في الفقه براعته في البلاغة واللغة، ونظم الشعر والموشح، فكان بذلك برزخا بين الجيلين، فإن العلمي، وقد مات شابا، خطا مع علي مصباح والافراني وجماعة من الأدباء غيرهم خطوات أوسع نحو التخصص في الأدب، فليس لهؤلاء أثر فقهي ذو بال.

كان الجيل الأول ــ جيل الشيوخ ــ أكثر اهتماما في ميدان الأدب بالحكم والأمثال والمعاني الصوفية وقوة اللغة فيما يختار أو يجمع في مصنفاته، أو ما يضمن إنتاجه الأدبي على السواء، وكان الأدب القديم مصدره الأساسي، فإلى جانب ديوان الحماسة وديوان الشعراء الستة الجاهليين يجد ديوان المتنبي وشعر المعري وديوان ابن الفارض سوقاً رائجة عند هذا الجيل، بينما يهتم الجيل الثاني ــ جيل التلاميذ الأدباء ــ بأدب العصور المتأخرة، فيمتاح من الغيث المسجم في شرح لامية

---

(89) ومن هذا الجيل أبو سالم العياشي وابن سليمان الروداني، ولهما اتصال وثيق بالشرق وإنتاج أدبي. ولم تكن لهما مساهمة تعليمية مؤثرة في أدباء العصر.

العجم، للصفدي، ومراتع الغزلان للشهاب الحجازي، وحلبة الكميت للقاضي النواجي، وديوان الصبابة ومنطق الطير وهما لابن أبي حجلة التلمساني، وتزيين الأسواق في أخبار العشاق لداود الأنطاكي وغيرها، ومن كتب الأدب الجامعة كنفح الطيب وأزهار الرياض للمقري. ولهذا الاختيار ارتباط بمفهوم الأدب في هذا العصر، وقد لاحظنا حين الحديث عن البلاغة اهتمام أدباء العصر بكتب البديعيات والشروح والتلخيصات الدائرة حول مادة مفتاح العلوم للسكاكي. ومن مزايا شرح الإفراني رجوعه إلى كتاب الكشاف للزمخشري، وهو أهم المصادر البلاغية التطبيقية المستعملة في هذا العصر.

ويميز جاك بيرك بين مدرستين في عصر اليوسي والإفراني: مدرسة الجنوب، ومركزها مراكش وتارودانت وما حولها، ومدرسة الشمال ومركزها فاس. وتتميز مدرسة فاس باتجاهها الفقهي المحافظ، في حين تتجه مدرسة الجنوب والبادية نحو الأدب واللغة والتصوف. وتسعفه المقارنة بين اليوسي وعبد القادر الفاسي، وهما ممن أثروا تأثيرا واسعا في العصر، لاستخلاص الكثير من النتائج[90].

ومن السهل أن يلحظ المرء أن عددا وافرا من الأدباء الكبار الذين درسوا في فاس واشتهروا بصفة أدباء ومؤرخين ينتسبون إلى البادية في الغالب، أو إلى مدن أخرى كالإفراني والزرويلي، ولا يستثني من ذلك إلا ابن زاكور. وربما رجعَ ذلك إلى إفلاتهم من الرقابة الاجتماعية التي تفرضها الأسرة المدنية، ولا سيما في فاس، على أبنائها[91]. كما هو راجع بدون ريب إلى مفهوم الأدب وارتباطه في هذا العصر بالمجون ونزوات الشباب كما وضحناه في أماكن أخرى من هذه المقدمة.

---

(90) انظر تفصيل الحديث في ذلك في كتابه Al-Youssi

(91) انظر الضغوط التي يمارسها هذا المجتمع والأسرة على مثقف هذا العصر في مقال للأستاذ محمد زنيبر في مجلة كلية الآداب العدد 3 — 4 ص 100. ومما جاء فيه أن الشاعر يُحس أنه مسؤول عن «الأسرة بصورتها القديمة التي لا تنحصر في وحدة محدودة، بل هو مسؤول عن الأسرة بأوسع معناها، ومسؤول عن اسمها، يمثلها في كل حركاته وسكناته. ومن دون شك فإن الأسرة بفاس كانت لها تقاليد والتزامات قد لا توجد إلا في أماكن معدودة من المغرب كما أن المجتمع الفاسي بتركيبه وعقليته ونوع حياته، أذكَى في النفوس الشعور بالأسرة كما تدل على ذلك التآليف الخاصة بالموضوع».

ونورد هنا تعاريف موجزة بأربعة من مشاهير أدباء العصر الذين تردد ذكرهم في هذه المقدمة وهم : اليوسي وابن زاكور والعلمي وعلي مصباح ، على أن نعرف بابن المسناوي والحلبي ضمن أساتذة اليوسي ، غير مغفلين الإشارة إلى جماعة من الشعراء المغمورين ممن سبق ذكرهم .

1 — الحسن بن مسعود اليوسي أبو علي[92] : المتوفي سنة 1102هـ/ 1692م ، أحد أشهر علماء وأدباء المغرب ، يجمع إلى الموسوعية العمق في التحليل ، وإلى الصوفية المشاركة في توجيه سياسة العصر . كان له تأثير روحي وأخلاقي واسع على أهل عصره ، يقدرون فيه شجاعته وجرأته يقول فيه محمد القادري : «كان ماهراً في المعقول والمنقول ، بحرا زاخرا ، وكان ممن لا تأخذهُ في الله لومة لائم ، وقد بالغ في الدب عن الشريعة والحرص على تقرير أصولها الرفيعة ، فقد كان سيفاً من سيوف الدين ، وقاطعاً لحجج المفسدين لا يخاطب السلطان إلا بصريح الحق ، مشافهة ومكاتبة ، ورزق الإقبال من الخلق فيجتمع عليه الجم الغفير حيثما أقام ، حتَّى كان السلطان لا يتركه أن يقر في قرار»[93] .

وأهم مؤلفات اليوسي وأكثرها قيمة مؤلفاتٌ أدبية ، سواء تعلق الأمر بكتاب المحاضرات أو زهر الأكم ، أو رسائله المختلفة ، أو ديوان شعره .

2 — محمد بن قاسم المشهور بابن زاكور[94] ، (ت 1190هـ/ 1708م) ، تلقَّى معارفه عن علماء فاس وتطوان والجزائر ، درس على اليوسي قصيدته الدالية[95] ، اشتهر كأستاذ ومؤلف في الأدب ، ونعت عند أدباء العصر بالتفرد بالبلاغة فقيل فيه : «وحيد البلاغة وفريد الصياغة»[96] و«الشيخ الأديب حامل

---

(92) أخباره في المحاضرات والصفوة ، والتقاط الدرر 248/2 وغيرها . وقد خصه جاك بيرك بدراسة تناول فيها القضايا الثقافية لمغرب القرن السابع عشر . كما خصته مجلة المناهل الصادرة عن وزارة الثقافة بعددها 15 ليوليوز 1979م .

(93) التقاط الدرر 248/2 .

(94) انظر ترجمته في الأنيس المطرب 19— 38 ، والتقاط الدرر 291— 292 .

(95) قصيدة من خمسمائة وأربعين بيتا في تهنئة محمد بن ناصر الدرعي «صنع لها تقييدا مختصراً يبين لحفاظها ما عَسَى أن يشكل من ألفاظها» ، ويعرف هذا الشرح بنيل الأماني في شرح التهاني (مقدمة نيل الأماني 2— 4 ، الأنيس المطرب 27) .

(96) الأنيس المطرب 19 .

لواء البلاغة بعصرنا»[97] ، له ، إلى جانب عنوان النفاسة المذكور سابقا ، ديوان شعر بعنوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقَى القريض وغيره .

3 — محمد بن الطيب بن أحمد العلمي أبو عبد الله[98] المتوفَى سنة 1134هـ/ 1721م

درس بالقرويين علوم اللغة والفقه والتاريخ ، عن عدد من العلماء أورد لائحة بأسمائهم في الأنيس المطرب[99] ، ومنهم ابن زاكور[100] .

ويعتبر كتاب (الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب) مؤلفه الوحيد الذي وصل إلينا ، وهو عبارة عن مساجلات وأخبار وروايات جرت بينه وبين أحد عشر أديبا من أدباء عصره ، وهو ذو قيمة كبيرة في دراسة أدب هذه المرحلة وتحديد مفهومه ، وفيه تراجم وآثار أدبية لم ترد في غيره .

4 — علي مصباح بن أحمد الزروالي أو الزرويلي[101] نسبة إلى قبيلة بني زروال المتوفَى سنة 1150هـ/ 1737م ، كان كاتباً وصديقاً للوزير اليحمدي ، له ديوان شعر يحتوي على أغلب الأغراض الشعرية . نعته القادري بـ«الشيخ الأديب اللغوي الفصيح .. له معرفة بالأدب واللغة وأيام العرب»[102] . وله عدا ديوانه كتابان في الأدب بمعناه العام سيأتي ذكرهما .

وهناك طائفة أخرى من الشعراء كان حظهم من الإهمال أكبر ، مثل محمد الطيب بن مسعود المريني[103] ، وهو خير ممثل للشعر الصوفي الذي تورم ديوانُه في

(97) أخباره في الأنيس المطرب والتقاط الدرر 312/2 — 313 .
(98) المسلك السهل 271 .
(99) الأنيس المطرب 290 — 293 .
(100) ذكر في الأنيس المطرب 28 أنه درس عنه ونال منه إجازة .
(101) أخباره في سنا المهتدي ، والتقاط الدرر 413/2 .
(102) التقاط الدرر 413/2 .
(103) اشتغل أول أمره بالكتابة لدَى السلطان إسماعيل ، ثم ولاه نقابة الأشراف بفاس قبل أن يأمر بقتله فيشفق عليه حاكم فاس ويخفيه موهماً السلطان بقتله. من مؤلفاته التصوفية تبصرة الغافل وتذكرة العاقل (انظر التقاط الدرر 341/2 ، والأنيس المطرب 39) وهو من أصدقاء الإفراني كما سيرد .

هذا العصر على حساب الجودة الفنية والعمق الروحي . قال في حقه محمد العلمي : «تنسك في الشباب وورى في شعره بسعدَى والرباب» ، وله قصائد «عارض بها ابن الوفا وطاول ابن الفارض ، تنبئ عن طول باعه ، واتساع أنديته في الكلام ورباعه»[104] ، أعجب معاصروه بتركيب أبياته وتنويع قوافيها ، فأقاموا لها التخريجات والجداول[105] .

ومن شعراء العصر الذين أهملهم المترجمون القدماء والمحدثون الحاج محمد الشرقي أبو عبد الله ، وإذا كنا لا نَملك من آثاره غير ما ذكره ابن الطيب العلمي في الأنيس المطرب[106] ، فإن هذا القدر الذي ينتشر على بساط حوالي مائة صفحة من المساجلات والإنشادات والمعارضات في قران مع أديب العصر ومؤلف الأنيس المطرب نفسه ، يدل على مقدرة هذا الشاعر . ويقول العلمي إن صاحبه كان ميالاً إلى العزلة والتشاؤم «حين علم أن سوق الشعر أصيب بالكساد ، وظهر في أرضه الفساد ، ولم يفرق بين ذيابه والآساد»[107] .

وكان يلازم محمد الشرقي شاعر آخر يُدعَى الشيخ أحمد عمور ، له ديوان شعر متباين القيمة ، تميل إليه العامة لسهولته[108] .

والحاج علي مندوصة الذي كانت له علاقة طيبة بابن زاكور ، ومما جاء في الروض الأريض : «وقال يخاطب صاحبه أبا الحسن علي مندوصة التطواني أديب العصر :

رِدْ صفوَها يا أخي مندوصة مناهلا بالعلَى مخصوصة[109]

---

(104) الأنيس المطرب 39 .

(105) المسلك السهل 105 والأنيس المطرب 45— 46 .

(106) الأنيس المطرب 51— 155 .

(107) المصدر السابق 51— 52 ، ربما وقع هذا بعد فشل محاولاته في استدرار عطف أبي علي الروسي ، ومدحه ومساجلته للوزير المهدي الغزال (الأنيس المطرب 97— 98 ، 138— 139 ، 56— 57 ، 62) .

(108) المصدر السابق 127— 129 .

(109) انظر بقية الأبيات الستة في الروض الأريض 267 .

وقال العلمي في حقه : «شاعر مفلق ، فقير من التوقف مملق»[110] .

وفيما أوردناه من شعر محمد التفنكَلتي ما يدل على أنه كان من شعراء العصر الذين يحسب لهم حساب في الجنوب[111] .

اللغة والبلاغة

يقتضي الحديث عن الظروف الخاصة بالأدب وعلوم اللغة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالعناية التي حظيت بها في برامج الدراسة الرسمية والخاصة ، التمييزَ بين الأدب الخالص من شعر ونثر وما يقوم عليهما من (شروح) تستهدف الجانب الجمالي ، وبين علوم اللغة والبلاغة ، فهذه العلوم وإن كانت داخلة في العملية الإنشائية والنقدية فقد حظيت باهتمام أكبر لعلاقتها بلغة (الكتاب) والحديث ، بل ربما كانت هذه العلاقة من الحوافز المباشرة لنشأة بعض هذه العلوم . وكان عز الدين بن عبد السلام ، وهو من الفقهاء ذوي الصيت في مؤلفات المتأخرين ، يقول : «البدعة خمسة أقسام ، فالواجبة كالاشتغال بالنحو الذي به يفهم كلام الله ورسوله»[112] . غير أن الذي وقع في عصر الافراني واستمر بمزيد من الحدة إلى العقود الأولى من القرن العشرين ، هو أن هذه العلوم أصبحت لا تدرس إلا لغرض ديني أو سياسي قصير الأفق مثل تكوين موظفين (كتاب) للخدمة المخزنية[113] ، حتَّى دراسة النصوص الشعرية عند بعض أدباء العصر الكبار لا تهدف إلا إلى فهم كلام الله وسنة رسوله ، وندر من بين شراح النصوص الشعرية من لم يجعل الدافع الديني أهم دوافعه وأولاها .

كان من الطبيعي إذن أن يختفي علم العروض لقلة اهتمام الناس به في مدينة فاس . وعندما طلب من محمد بن أحمد الشاذلي الدلائي إقراء الخزرجية اشترط أن يكون ذلك بأسطوان داره ، «فأخذوه عنه وجددوه عليه»[114] .

(110) الأنيس المطرب 343 ، وفيه قصيدتان لمندوصة مدح بالأولى ، وهي طويلة ، ابن زاكور ، وبالثانية الشيخ علي بركة بمناسبة ختم البخاري .
(111) انظر القسم الأول من هذا الفصل .
(112) فتح المغيث 148 .
(113) انظر حديثا خاصاً للأستاذ عبد الله العروي في كتابه Les origines في موضوع التعليم .
(114) محمد القادري ، التقاط الدرر 316/2 ـ 317 ، وتوفي محمد بن أحمد بن الشاذلي سنة 1137هـ/ 1725م .

ونذكر فيما يلي بعض المصادر التي اهتم بها لغويو هذا العصر وبلاغيوه ، مع ما كان لهم من إنتاج في هذه الاختصاصات متحرين الايجاز[115] .

ففي اللغة لقي القاموس المحيط للفيروزبادي والصحاح للجوهري اهتماما خاصا ، فألف محمد بن الطيب الشرقي ، المتوفَى سنة 1170هـ/ 1766م، إضاءة الراموس[116] محشيا به القاموس المحيط ، وألف أحمد الهلال السجلماسي المتوفي سنة 1175هـ/ 1761م إضاءة الأدموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس[117] ، وفتح القدوس في شرح خطبة القاموس[118] ، كما مدح القاموس بقصيدة شعرية[119] . ومن المعاجم التي اعتمدها الإفراني إلى جانب القاموس المحيط والصحاح للجوهري الغريبان لأبي عبيد وغريب القرآن للعزيزي ، والأساس للزمخشري وكتاب الأفعال لابن القوطية والحدود للسيوطي . غير أن جهودهم في ميدان اللغة إنما تظهر بجلاء في الجانب التطبيقي كما هو الحال في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور.

وفي النحو اهتم الدارسون بالاجرومية وشروحها في المرحلة الأولى ، وفي المرحلة الثانية ينتقل الطالب لدراسة ألفية ابن مالك . ويتردد في مؤلفاتهم ذكر الموضح ، أي أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام والمغني وشرح الكافية له كذلك ، والتصريح بمضمون التوضيح للأزهري وتسهيل القواعد وشرح الكافية لابن مالك .

أما التأليف في النحو فلا نظفر منه بأهم من شرح الفريدة[120] لمحمد بن زكري المتوفي سنة 1144 / 1731م، وشرح كافية ابن مالك لمحمد بن الطيب

---

(115) ومن الكتب التي كانت تدرس بالسند المتصل فصيح ثعلب ، وهو من مرويات صاحب المنح البادية.

(116) يوجد بالمكتبة العامة ، الجزء الثاني تحت رقم 262ك ، 1645ك .

(117) مخطوط م.ع 269د

(118) مخطوط م.ع 905د

(119) مخطوط م.ع 269د .

(120) الفريدة منظومة في النحو للسيوطي ، وطبع هذا الشرح على الحجر بفاس في جزأين بدون تاريخ ، ولابن زكري حاشية على الموضح لابن هشام .

الشرقي[121] .

وفي البلاغة احتل تلخيص المفتاح للقزويني مكان الصدارة ، ويليه شرح المطول للتفتازاني ، ثم الايضاح في علوم البلاغة للقزويني وعقود الجمان للسيوطي . ومن الكتب التطبيقية في البلاغة كتاب الكشاف للزمخشري . ونجد عند الأدباء الشبان خاصة اهتماما زائدا بكتب البديع وشروح البديعيات وعلى رأسها شرح بديعية ابن حجة له ، المعروف بخزانة الأدب ، قال الإفراني : «وما رأيت مثل شرحها في الأدب»[122] ، وشرح بديعية صفي الدين الحلي لعبيد الثعالبي المعنون أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي[123] ، قال الإفراني : «وهو شرح حفيل»[124] .

وليس لمؤلّفي العصر ، حسب ما بين أيدينا ، تآليف بلاغية تستحق التنويه ، وأشهرها مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لأحمد بن يعقوب الولالي[125] ، وكان الإفراني من أولائك القلائل الذين ألفوا في قضية بلاغية كتيبه تعليق على الأرجوزة المسماة ياقوتة البيان[126] . كما ألفَ ابن زاكور شرحاً على بديعية صفي الدين الحلي وهو الصنيع البديع في شرح (الحلية) ذات البديع[127] . أما في الجانب التطبيقي ، فالمسلك السهل أوسعُ وأجرأ محاولة عرفها العصر في تطبيق البلاغة على دراسة النصوص الأدبية .

وبرغم الأزمة التي مر بها علم العروض حتّى انقرض بفاس أو كاد كما أسلفنا ،

---

(121) للشرقي أيضا حاشية على المغني وأخرى على التسهيل .
(122) انظر لائحة مصادر المسلك بخط الإفراني في أول نسخة الأصل .
(123) انظر ترجمة الثعالبي والتعريف بكتابه في حاشية الصفحة 27 من المسلك السهل .
(124) لائحة مصادر المسلك السهل بخط المؤلف في أول نسخة الأصل .
(125) سبقت ترجمته .
وكتابه مواهب الفتاح يجري على سنن ما سبقه من الشروح ، «وهو يفسح على غرار من سبقوه لمسائل المنطق والكلام والفلسفة والنحو واللغة والأصول مما لا يتعلق به غرض بلاغي» (البلاغة تطور وتاريخ 357) وقد طبع مع مجموعة من الشروح (ذيل كشف الظنون 319/1) .
(126) انظر مؤلفات الإفراني ضمن هذه المقدمة .
(127) لم نطلع على هذا الكتاب .

فإن النبهاء من الشعراء والأدباء كانوا يتداولون في زمن الإفراني شرح الخزرجية في العروض للشريف السبتي ، والمفاتيح المرزوقية لحل أقفال الخزرجية لابن مرزوق ، والعيون الغامزة على خبايا الرامزة للدماميني[128] .

وألف ابن زاكور شرحاً للخزرجية المذكورة بعنوان النفحات الأرجية ، والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية[129] .

إن قصارَى ما كان يطمح إليه طالب العلم في هذا العصر هو استيعاب وتحصيل ما هو متيسر بين يديه من علوم اللغة والبلاغة سواء عن طريق حفظ المنظومات أو معاودة قراءة الشرح ، وقل من تسمو به همته وتسعفه ملكاته لينتقل إلى التطبيق على النصوص البكر كما فعل الإفراني . وكلما ابتعدنا عن العقود الأولى من القرن الثاني عشر وعن أساتذة الزاوية الدلائية وتلاميذها دب الجدبُ إلى الدراسات اللغوية كما دب في الفقه ، والفكر الديني عموما ، ولم ينبغ إلا أفراد قليلون تدخلت في تكوينهم ظروف خاصة مثل محمد بن الطيب الشرقي .

الأدب تدريسا وتأليفا

كانت المواد المدروسة في المدارس والمساجد الكبيرة تخضع للحاجة الدينية والاجتماعية والسياسية ، فإلى جانب المناصب الدينية من إمامة وقضاء وعدالة .. والمناصب التعليمية المتفاوتة الأهمية .. وفر استقرار الدولة بجهازها الإداري الضخم مجموعة من مناصب الوزراء والكتاب الملحقين بالبلاط مباشرة أو التابعين لحكام الأقاليم .. غير أن هذا كله لم يعط الأدب المكانة التي تدخله ضمن برامج الدراسة الرسمية في المدارس الكبرَى ، فاقتصر تدريسه على المدارس الصغرَى وبعض الزوايا[130] وقد يلجأ مدرسُ المواد التي لها مساس بالأدب إلى أسطوان داره ، كما اشترط ذلك محمد بن أحمد الشاذلي لتدريس العروض[131] . أو إلى سطح

(128) انظر لائحة مصادر المسلك السهل .

(129) يوجد مخطوطا ضمن مجموع خ.ع برقم 157د ، ورقات 95— 108 .

(130) وسيزيد الأمر سوءا في القرن الثاني من القرن الثامن عشر وكل القرن التاسع عشر ، فيسوء حال بعض المواد التي لا تحقق نفعا عاجلا مثل التفسير . (انظر لذلك Les origines لعبد الله العروي) .

(131) انظر الصفحة 29 الحاشية 5 من هذه المقدمة .

المدرسة ، شأن الوجاري الذي «درس بسطح المدرسة الرشيدية ، ثم احتالَ عليه تلاميذته إلى أن صار يدرس بمسجد الأندلس»[132] .

وهناك مظهر آخر لتلقين الأدب يتم بين أفراد العائلة ، سواء في الزوايا أو في الحياة العائلية الخاصة ، خارج الأوقات الرسمية للتدريس . يقول اليوسي : «دخلت يوما على أستاذنا الإمام أبي عبد الله ابن ناصر ، وكان يوم جمعة ، فوجدته في روضة الأشياخ ، وإذا هو يقرر لأولاده ديوان الشعراء الستة ويطرِّر على النسخة ما يحتاج من شرح الغريب ونحو ذلك»[133] . وحينما زار الشاعر ابن الطيب العلمي الأديب الوزير أبا حفص عمر الحراق بمكناس قدمَ له هذا الأخير ابناً له «بعد ست» سنين ... ثم قال له : قل يا بني .. فأنشد وما وجم ، حتّى أتَى على آخر لامية العجم،من غير أن يحدث في عروضها كسراً ، أو يغفل في إعرابها ضما ولا كسرا ، ثم أتَى من القصائد ما يتخذ ذخرا ، وانتقل في المعاني .. ثم قال : يا بني ، أطرفنا بشيء من الأخبار ، فحدثنا بقصص رائعة»[134] . فلا شك أن أبا حفص كان يعد ابنه للوزارة بعنايته الشخصية أو عن طريق المعلمين الخاصين .

وعلى رأس الكتب الأدبية المدروسة تأتي مقامات الحريري ، إذ تعتبر في نظرهم مادة لغوية مساعدة[135] . وهي من مرويات أستاذ الإفراني محمد بن عبد الرحمن الفاسي في المنح البادية ، وفي ذلك يقول : «وأما الأدب فأروي مقامات الحريري وسائر مؤلفاته ..»[136] . ومن المجموعات الشعرية نجد الاهتمام بديوان الشعراء الستة .

---

(132) التقاط الدرر 328/2 ، والوجاري هو أحمد بن علي ، توفي سنة 1729/1142 ، من شيوخ العصر ، «له ملكة في النحو والتصريف واللغة وحفظ أيام العرب» المصدر السابق .

(133) المحاضرات 168 .

(134) الأنيس المطرب 164 .

(135) في ترجمة محمد الشاذلي (1103هـ) أنه درسها «ثلاثين ختمة» . (التقاط الدرر 253/2) ، واقترحها محمد الثالث . ضمن برنامجه الدراسي إلى جانب ديوان الشعراء الستة .

(136) المنح البادية غير مرقوم .

على أن الحقيقة التي ينبغي التنبيه إليها هنا هي أن الأدب الخالص إنما كان يجد المجال للظهور في حلقات الدرس كشواهد بلاغية وعروضية ونحوية .. وكأخبار ونكت وأمثال يستأنس بها المدرس . فرغم أن الوجاري ، المتقدم الذكر ، كان يتربع مجلس تدريس ألفية ابن مالك ، فإنه «يقتصر على تحقيق مهمات المسائل وتحرير المشكلات ، ويستحضر اللطائف والشوارد والغرائب ، ويلقيها في مجلس درسه ، وكانوا يستحسنون ذلك منه جدا»[137] ، فيغص مجلسه بالخلائق[138] .

وكان الجندور (1148/ 1735) يدرس ألفية ابن مالك ويورد ، عدا الشرح ، «كثيراً من أشعار العرب اللائقة ، ومن اللغة وأيام العرب»[139] .

ومع هذا فقد أشكل على الدكتور محمد الأخضر ، في كتابه الحياة الأدبية ، أمر وجود أدب وأدباء في المغرب ، والحال أن (فهارس) المتعلمين المغاربة لا تشير إلى أنّ الأدب الخالص كان يدرس[140] .

أما الكتب التي يسجلها المؤلفون كمصادر لمؤلفاتهم شأن الإفراني في المسلك السهل فهي مصادر خاصة تستعملها النخبة من الأدباء حسب طموح كل منهم .

وانعكست حالة الأدب على مصائر الأدباء فعاشوا مغمورين ، وضاعت أخبارهم وأغلب آثارهم بعد موتهم[141] ، ولم يلقَوا من الشهرة والحظوة ما لقيه كبار الفقهاء والمتصوفة . وهذه حال جماعة ممن ترجم لهم ابن الطيب العلمي في الأنيس المطرب ، وعدد من مدرسي المواد اللغوية مثل الجندور والوجاري السالفي الذكر[142] .

---

(137) التقاط الدرر 328/2 .
(138) المصدر السابق .
(139) التقاط الدرر 346/2 . هو محمد بن الحسن أبو عبد الله ، من مدرسي النحو والبلاغة ، ولم يعتن بالتأليف . (المصدر السابق) .
(140) الحياة الأدبية 33 .
(141) من هؤلاء الحاج محمد الشرقي ، وأحمد عمور وعلي مندوصة ... كما تقدم .
(142) إن كتب التراجم والأنساب والمناقب تضلل الباحث عن الشخصية الأدبية والعلمية بالمغرب فيصاب بخيبة أمل عندما يعرض انتاج شخصيات تستقطب الاهتمام للغربلة والنقد . بل إن بعض الدارسين المحدثين جرفهم هذا التيار ، فنجد الدكتور محمد الأخضر مثلا يقحم على (الحياة الأدبية) عددا لا يستهان به من الفقهاء والعلماء الذين لا أثر لهم في الأدب ، في حين يُهمل بعض الأدباء الحقيقيين .

أشرنا في فصل سابق إلى تعدد مؤلفات هذا العصر وتنوُّعها ، ونثبت هنا لائحة بأهم المؤلفات الأدبية نضيفها إلى ما سبق ذكره من مؤلفات في اللغة والبلاغة . وبكثير من التجاوز يمكن تصنيف هذه المؤلفات في أربعة أصناف :

1 - كتب الأدب العامة ، ومنها

زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي .
المحاضرات للمؤلف نفسه .
الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لمحمد بن الطيب العلمي .
سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير اليحمدي لعلي مصباح الزرويلي .
أنس السمير في نوازل الفرزدق وجرير لعلي مصباح الزرويلي .
وتحفة الأريب ونزهة اللبيب لأبي مدين الفاسي .
المحكم في الأمثال والحكم له أيضا .

وهذه الكتب في أغلبها عبارة عن مجموعات أدبية تعبر عن حاجة أهل العصر وذوقهم ، فيها من الأدب القديم ومن أدب العصور المتأخرة ، من أدب المغاربة والمشارقة ، ومنها ما هو أقرب إلى اللغة مثل زهر الأكم ، وإلى النقد مثل مقدمة أنس السمير لعلي مصباح .

2 - شرح النصوص الأدبية ، ومنه :

نيل الأماني في شرح التهاني للحسن اليوسي .
عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة لمحمد بن زاكور .
مقياس الفوائد في شرح الفرائد له أيضا .
المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل للإفراني .
شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية لمحمد بن أحمد الشاذلي ومحمد البكري الدلائيين .
شرح بانت سعاد لأبي الحسن بناني .
شرح رائية الشريشي لأبي مدين الفاسي .

ولكل من هذه الشروح طابعه الخاص وغاية يسعَى الشارح إلى بلوغها ، ولذلك

لا يمكن إصدار حكم مجمل فيها إلا في حدود القول بأن منها ما هو لغوي تعليمي يهدف إلى التبسيط كنيل الأماني ، ومنها ما هو أدبي يسعَى لاقتناص المتعة الفنية كالمسلك السهل .

3 – **دواوين الشعر** ، ومنها :

ديوان اليوسي
ديوان أحمد بن عبد الحي الحلبي .
ديوان ابن زاكور
ديوان علي مصباح .

وهناك دواوين أخرى لا ندري لحد الآن مصيرها مثل ديوان أحمد عمور[143] ، كما أن بعض الشعراء لم يجمعوا شعرهم في ديوان ، فظل متفرقا في كتبهم أو كتب معاصريهم مثل أشعار محمد بن الطيب العلمي الذي بث كثيرا منها في الأنيس المطرب .

4 – **النثـر الفني** ، وظهر منه :

الحلل السندسية في مدح المقامات الأحمدية ، وهي مقامات على طريقة مقامات الحريري ، غير أن موضوعها مختلف أصلا ، فهي تتجه اتجاها صوفيا[144] .

وخلف أدباء العصر كذلك كثيرا من الرسائل الإخوانية والرسمية والخطب ومقدمات الكتب ، وغيرها من النصوص النثرية الزاخرة بالصنعة البديعية .

* * * *

(143) ذكره العلمي في الأنيس المطرب 129 ، وقال إن شعره متباين القيمة ، وله كلام سهل تميل إليه العامة (ص 127) .
(144) علق عليها جاك بيرك وبين قيمتها الفنية في كتابه 118 – 117 :

مصادر ومراجع

1 ــ اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . تأليف عبد الرحمن بن محمد بن زيدان المتوفي سنة 1365هـ/ 1946م . المطبعة الوطنية الرباط .

2 ــ اتحاف ذوي الأدب في مقاصد لامية العرب . تأليف سعيد المغوسي المتوفي سنة ع خ ع 142ج ، 877ج .

3 ــ اجازة محمد بن أحمد المسناوي المتوفي سنة 1136هـ/ 1724م لأحد تلاميذه مخطوط الخزانة العامة بتطوان برقم 536 ضمن مجموع .

4 ــ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه تأليف الدكتور عباس بن عبد الله الجراري الجزء الأول الرباط 1979 .

5 ــ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض . تأليف شهاب الدين أحمد بن محمد المقري المتوفي سنة 1140هـ/ 1727م تحقيق مصطفَى السقاط وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي راجعه وحقق الجزء الرابع والخامس منه الاساتذة : محمد بن تاويت وسعيد أعراب وعبد السلام الهراس ، وأعيد طبعه بالمحمدية 1978 ــ 1980 .

6 ــ الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام . تأليف العباس بن ابراهيم المراكشي المتوفي سنة 1959 . المطبعة الجديدة فاس 1939 .

7 ــ البلاغة تطور وتاريخ . تأليف الدكتور شوقي ضيف 1976 .

8 ــ الأنيس المطرب في من لقيته من أدباء المغرب . تأليف أبي عبد الله محمد ابن الطيب العلمي المتوفي سنة 1722/1134 فاس 1315م .

9 ــ البدور الضاوية تأليف أبي الربيع سليمان بن محمد الحوات المتوفَى سنة 1231هـ/ 1850م مخ.خ.ع برقم 162د .

10 ـ الحائك ، تأليف محمد بن الحسين الحائك التطواني من أهل القرن الثاني عشر الهجري الطبعة 1977 .

11 ـ الحلل السندسية لأحمد بن عبد الحي الحلبي ، أبي العباس المتوفَى سنة 1120هـ/ 1708م مخ.ع.م برقم 4265 ، 4862 .

12 ـ الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية تأليف الدكتور محمد الأخضر الدار البيضاء 1977 .

13 ـ الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة . تأليف محمد المكي بن موسَى الناصري مخ.خ.ع برقم 265ك .

14 ـ رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد . تأليف أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الزرهوني من أهل القرن الثاني عشر الهجري ميكروفيلم مخ.خ.ع برقم 1124 .

15 ـ رسالة لليوسي مخطوط خ.ع 849ج ص 16 ضمن مجموع .

16 ـ الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقَى القريض . تأليف أبي عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور المتوفي سنة 1120هـ/ 1708م مخ.خ.ع برقم 357ك .

17 ـ الروض اليانع الفائح . تأليف حسن بن رحال الهداجي مخ.خ.ع برقم 2260ك .

18 ـ روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف . تأليف محمد الصغير الافراني المراكشي المتوفي سنة 6ـ 1157 الرباط 1962 .

19 ـ الرياحين الوردين . تأليف محمد المكي بن موسَى الناصري مخ.ج.ع برقم 88ج .

20 ـ الزاوية الدلائية . تأليف الدكتور محمد حجي الرباط 1964 .

21 ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصَى . تأليف شهاب الدين أحمد بن

خالد الناصري المتوفي سنة 1250 تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصريين الدار البيضاء 1956 .

22 – سنا المهتدَى إلى مفاخر الوزير اليحمدي تأليف علي مصباح الزرويلي المتوفَى سنة 1150 مخ.خ.ع .

23 – صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. تأليف أبي عبد الله محمد الصغير الافراني المتوفي سنة 6 – 1157 مخ.خ.ع برقم 671د ، 1178د وطبعة فاس الحجرية .

24 – فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث تأليف أبي عبد الله محمد الصغير الافراني المتوفَى سنة 6 – 1157 مخ.خ.ع 88.ج ضمن مجموع .

25 – الفريد في تقييد الشريد مخ.خ.م. 4198. 4260م .

26 – فهرست أبي القاسم بن سعيد العميري المتوفَى سنة 1178هـ/ 1764 مخ.خ.ع برقم 1361ك .

27 – القصيدة تأليف الدكتور عباس بن عبد الله الجراري ، مطبعة الأمنية – الرباط .

28 – التقاط الدرر تأليف محمد بن الطيب القادري المتوفَى سنة 1187هـ/ 1773م تحقيق ودراسة الاستاذ هاشم بن المهدي العلوي ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت سنة 1979 بجامعة محمد الخامس الرباط .

29 – مؤرخو الشرفاء . تأليف ليفي بروفانسال ، ترجمة عبد القادر الخلادي الرباط 1977 .

30 – المحاضرات تأليف أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي المتوفي سنة 1102 . أعدها للطبع الدكتور محمد حجي الرباط 1976 .

31 – المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل تأليف أبي عبد الله محمد الصغير الافراني المتوفي سنة 6 – 1157 تحقيق محمد العمري رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت سنة 1981 .

32 ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد بن علي المراكشي المتوفى سنة 1250م الطبعة السابعة 1978 .

33 ـ ملاذ الطلب في جواب أستاذ حلب لأبي مروان التجموعتي المتوفى سنة مخ.خ.ع .

34 ـ المنح البادية في الأسانيد العالية ، فهرسة محمد بن عبد الرحمن الفاسي المتوفي سنة 1134هـ/ 1722م مخ.خ.م برقم 1227 .

35 ـ الموسوعة المغربية تأليف عبد العزيز بن عبد الله الاجزاء 1 ، 2 ، 3 .

36 ـ موشحات مغربية تأليف الدكتور عباس بن عبد الله الجراري الدار البيضاء 1973 .

37 ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي تأليف الشيخ عبد الله كنون بيروت 1975 .

38 ـ نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي تأليف أبي عبد الله محمد الصغير الافراني المتوفي سنة 6ـ 1157 مكتبة الطالب الرباط .

39 ـ نيل الاماني في شرح التهاني لأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي المتوفي سنة 1102 .

40 ـ واسطة العقدين تلخيص كناشتي الملك اسماعيل تقديم الافراني محمد الصغير مخ.خ.ع برقم 330ك .

41 – Berque (J). Al-Youssi ; Problèmes de la culture marocaine au 17è siècle. Paris. 1958

42 – Laroui (A). Les origines culturelles et sociales du nationalisme marocain. Paris. 1977.